كلمات في دائرة مغلقة

حسني الناشي

الكتاب : كلمات في دائرة مغلقة (قصص قصيرة)

المؤلف : حسني الناشي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٣٤٠ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-226-7

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة . الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة وتصميم الغلاف : الفنان مازن لطيف



كلمات في دائرة مغلقة

قصص قصيرة

حسني الناشي



مقدمة

هيثم نافل والي

قاص عراقي مغترب

ألمانيا/ ميونخ

كالعادة.. الصدفة بحكم غربتنا الممتدة لأكثر من ربع قرن هي التي جمعتني وعرّفتني بشخصية القاص القدير "حسني الناشي" من خلال أدبه القصصي المشحون بالعواطف الإنسانية الظاهرة التي لا يخلو منها مشهد، أو حدث، أو تصوير، أو جملة.. ومن يطالع أدب الناشي سيجد ما أقوله بوضوحٍ تام كالقمر في تمامه.. بل أستطيع أن أجزم بأن قصصه التي قيدناها في كتابه هذا ما هي إلا جسده، فرحه وحزنه، شوقه ووجده، لوعته وآهاته وألمه.. إن لم تكن حياته كلها.. منذ ولادته وحتى آخر نبض نطق به قلبه الرحيم، الكبير، العطوف المجلل بالحب لكل من حوله وكأن كل الناس أهله.

قلت، إن الصدفة هي التي جمعتني به عندما كنت مدعوًا من صديق جديد في بيته؛ يتمتع بمواهب تشبه ما نحمله وما نحبه وما نمارسه.. وأول ما سقط نظري على مكتبته الزاخرة المنتفخة بالكتب- وهذا طبع لم أستطع تغييره أو ترويضه- حتى جلست عند جدارها أقلّب الكتب بعد أن نسيت نفسي كالطفل وسط ألعابه،.. تاركًا صديقي وزوجته وزوجتي يتسامرون لا أسمع لهم صوتًا غير رنين

وهسيس أوراق الكتب التي أفركها وأقلبها وكأنها أوراق نقدية ورقية، وما تكون هذه الأخيرة مقابل تلك التي بدأت أقرأ محتوياتها بسرعة كادت تأتي على نظري وقلبي!!. فوقع بين يدي كتابٌ بغلاف أسود جرحه أسم لوّنَ بالأبيض "عرس الروح لحسني الناشي" عبارة عن مجموعة قصص قصيرة من النوع الذي أدمنت عليه.. قراءةً وكتابة!!. استعرته دون أن أعطي لصديقي الكريم أي مجال للرفض، أخذته معي أحمله على صدري كابني الصغير، أتيت عليه بجلستين فقط، عرفت أثناء القراءة.. بإنني أمام قاص عملاق من العيار الثقيل بلا شك، فكتبت رأيي هذا مقالاً ونشرته في المواقع والصحف التي أتعاطى التعامل معها.. وما أن وصل الخبر عائلة الناشي، حتى بدأت لنا ومع هذا الكتاب الذي نتحدث عنه، حكاية غاية في الجمال أقرب إلى الخيال...

حيث ما أن سمعت زوجته الكريمة الوفية بما قدمناه من مقال متواضع بحق زوجها القاص المبدع، حتى سارعت بالاتصال وهي تطلب أن نساعدها بإظهار ما في حوزتها إلى النور من وريقات ومخطوطات لم تكتب بعد على جهاز كومبيوتر ولم تخزن في خازنته!!.. من أدب المرحوم طيب الذكر حسني الناشي.

لم نبخل ولم نتهاون، رحبنا بالفكرة وقررنا ونحن نشعر بسعادة عجيبة في إتمام هذا المشروع الأدبي الأخلاقي والإنساني، وهذا أقل ما نفعله لمبدعنا وقاصنا الذي غمرنا بحياة أدبية نستطيع أن نعيش فيها ونغرف منها إلى ما شاء الله.. وما أن وصل خبرنا مدير

مؤسسة شمس للنشر والإعلام؛ الشاعر إسلام شمس الدين، حتى رحب بالفكرة وجعلها حقيقة بعد أن كانت في طي الذاكرة غافية.

ولد القاص حسني الناشي عام ١٩٤١ محبًا للآداب منذورًا لها.. تخرج من دار المعلمين عام ١٩٥٨ ثم أكمل دراسته الجامعية فحصل على بكالوريوس آداب الجامعة المستنصرية عام ١٩٧٥. زاول مهنة التعليم لأكثر من ثماني وعشرين عاماً، حازت مجموعته القصصية المسماة "لحظات من الجنون" موافقة وزارة الثقافة والإرشاد في حينها عام ١٩٦٤ ولم يوافق قاصنا على نشر مجموعته لأسباب شخصية تتعلق به. نشر أول قصصه القصيرة في صحيفة غير حكومية عام ١٩٦٦ بعنوان "الشارع ومصباح النيون" وكان النشر متأخرًا قياسًا لبداياته المبكرة في الكتابة... صدرت له مجموعة قصصية تحت عنوان "قوة الأشياء في شيبا" عام ٢٠٠٢ قبيل رحيلة الذي صادف ٢٤-١٢-٢٠٠٢بفترة قصيرة.. ثم بجهد خالص وبوفاء عظيم من زوجته تم طبع وإصدار مجموعته القصصية الثانية تحت عنوان "المعطف".

في سنوات حياته الأخيرة خانه بصره ولم تخنه بصيرته.. ظل يملي على زوجته وابنته أنسام ما يريد كتابته.. صارتا في تلك الفترة العصيبة القلقة الحزينة عينيه ويديه.. فخطتا وفيتا العهد باليد روايته التي لها معنى ومعاناة ما كان يحمل "خطوط مائلة" لأنه في تلك الفترة لم يعد يرى الأشياء التي تحيطه إلا خطوطًا واهية وبشكل مائل.

في حزيران من عام ٢٠١٥ منح القاص حسني الناشي عضوية فخرية، شرفية من قبل رابطة الأدباء والفنانين والصحفيين المندائيين للجهود التي بذلها من أجل إعلاء الكلمة التي ناضل من أجلها ويعتبرها الفعل والحركة والتطور..

كان الناشي عليماً باللغة العربية، خبيراً لها، فجاءت كتاباته بلغة شعرية راقية، مؤثرة، إنسانية وتكاد تجعل الصخور تحس وتشعر لحميميتها ورقتها وانسيابيتها.. ناهيك عن لغة الوصف التي برع فيها وأجاد، فمثل لنا صورًا ومشاهد قلّ مثيلها في تاريخ القصة القصيرة العربية المعاصرة التي بدأت على يد محمود تيمور رحمة الله وميخائيل نعيمة عام ١٩٢٧، ونعتقد بأن حسني الناشي قد أكملها بذات القوة دون مبالغة.

أرجو لقاصنا العملاق حسني الناشي الراحة الخالصة وهو بجوار ربه.. وأثني على جهد ووفاء زوجته، وأتمنى للقارئ العربي أوقات مفعمة بالمتعة الروحية واللذة الذهنية وهو يرافق يدًا بيد قاصنا في عوالمه التي صوّرها لنا من خلال إبداعاته القصصية الخالدة.

كلمات في دائرة مغلقة

حسني الناشي

الورد لغــة

من مكانه هذا والذي لا يبعد عنهم كثيرًا؛ راح يحدِّق في الوجوه التي أمضها الانتظار، فبدت كئيبة القسمات، ذابلة السمات، كانت أشعة الشمس تستبيح الأشياء بلا رحمة، يشعر الآن بحالة من التبخر تغزو جسده كالحمى الخبيثة، يسح عرقه عابرًا تضاريس جسمه إلى كل أجزائه، مازال الوقت يتدلى كريهًا وبطيئًا، يهتف ساخرًا من كل شيء "أواه أيها الأصدقاء، كم هي ظالمة صداقاتكم، وكم أنتم زائفون".

وهو يتطلع إلى الجهة الأخرى تغمره لحظات من الفرح يطفو فوقها، يغادر مكانه، تحمله خطواته المتسارعة عبر الشارعين، متحديًا سيل السيارات الذي لا ينقطع، يقف الآن بين أشجار اليوكالبتوس، يدنو نحو أغصانها المتشابكة، يقطع بعضًا من وريقاتها التي بهتت خضرتها ثم يفركها بين كفيه، يستنشق رائحتها بعمق.

ثمة حوض ماء إلى يمينه، تنطلق منه نافورات ثلاث، يتجمع ماؤها وسط الحوض مكونًا بركة ماء صغيرة، اقترب منه واضعًا وجهه قبالة الرذاذ الذي انتشر من حوله كغلالة شفافة، وضع يديه في ماء الحوض، اغترف شيئًا منه، مسح وجهه وشعر رأسه،

شعر بالضجة تبرد قليلاً في عروقه، فاستسلم إلى ما يحيطه بلذة طفولية ساحرة، افتقدها منذ زمن بعيد. كانت ذرات الماء تداعب مساحات من وجهه الصحراوي، وتعرش كالأمل بين عينيه.

بدا باب مستشفى اليرموك الكبير والذي فتح على مصراعيه – من هذا المكان – بعيدًا عنه جدًا، تأمل ما حوله، رأى على مبعدة أمتار منه محلاً لبيع الزهور، همس: "لابد من هدية أقدمها لصديقي الراقد في المستشفى، وليس كالزهور هدية رائعة". توجه نحو المحل؛ وقف أمام واجهته الزجاجية العريضة يتأمل بهدوء ولذة محتوياته الأنيقة، قوة ما تسحب بصره إلى هناك، إلى نقطة حيث يمتزج الحلم بالواقع، وتنهال مع الخيال صور ورؤى لا حصر لها. أغمض عينيك قليلاً وتأمل بعمق، ذلك الوجه القادم من تخوم الذكريات العزيزة وأيام الصبا الأول، أحقًا ما أرى؟! أحقًا في مثل هذا الوقت وهذه المصادفة الغريبة؟! حسيب عبد الله؛ معلمي الفاضل، قبل أكثر من ربع قرن، الآن أحس بوطأة السنين وتخثرها في الأعماق، لحظة هدوء احتاجها الآن لأسترد أنفاسي، لحظة هدوء هي كجرعة دواء مهدئ، إلا أن العروق بدأت تنتفض لذلك الزهو الذي أعاد للذاكرة رائحة تلك الأيام المجيدة.

ويندا ح فرح الطفولة كله في أعماقه ويغمر الوجود من حوله بفيض من ارتعاشات عذبة، أمسك مقبض الباب.. دفعه ثم دلف إلى الداخل، طالعته شجيرات الظل وهي تحيط بالمدخل الأنيق، ثم

يغمره جو المحل بمشاعر ساحرة، ويلتقط السمع أنغام موسيقى هادئة تنساب من جنبات المحل كله، وعلى استحياء منه ينساب بصره نحو الوجه الهادئ الرصين، ثم يتحول البصر إلى باقات الزهور التي تتماوج ألوانها في تناسق رائع وهي في سلالها الأنيقة، ثم تلقي عليه التحية بصوت بدا لك غير صوتك، ويمتلئ بذات النبرات التي تحتضن الذاكرة إيقاعاتها الحبيبة:

- أهلاً أهلاً.. عليكم السلام..

يضع كتابًا كان بين يديه على المكتب الصغير الأنيق الذي يجلس خلفه، ثم ينهض واقفًا بعد أن خلع نظارته ووضعها فوق الكتاب، يرتفع صوته ثانية فيفجر مواطن الحنين في أعماقه:

- تفضل اجلس..

يُشير إلى كرسي قريب منه، وأنت تضيع في قسمات الوجه المتعب، ترد:

- شكرًا، شكرًا جزيلاً لك يا أستاذ.

في لحظة واحدة تنز الفكرة، حيث تمتزج بحميمية مشاعر الرجل بمشاعر التلميذ..

- بودي الحصول على باقتَّي زهور!

ينقطع وريد الكلمات، تهتف ملتاعًا: (أكمل أيها الرجل الذي شابت سوالفه، أغمض عينيك وقل كلمة واحدة، أبعد عنك أمواج

الذكريات، فالرجل بدأ يحس بما تعانيه)، ويخرج الصوت من الشرنقة:

- نعم قلتُ باقتين، واحدة لصديق يرقد في هذا المستشفى.

وتشير إلى الجهة المقابلة وتحاول أن تُكمل، لكن ابتسامته تقاطعك، ابتسامته التي لم تتغير، كما هي، تلتصق بزاوية فمه فتشع على سمات وجهه عذوبة لا تُنسى..

- دونك المحل، ففيه من الزهور التي تستطيع أن تختار منها ما تريد..

ثم يتساءل كمن تذكر:

- قلت باقتين؟

- نعم..

وقبل أن يجيبه يعتذر ثم ينشغل بشخصين دخلا المحل، كان يحادثهما بذات الرزانة وذلك الهدوء الذي عرف بهما، لم تتغير كثيرًا سيدي، مازالت عيناك تطلان على الحياة بنفس الحب والوداعة، ووجهك الذي بدت جبهته عريضة وعالية أكثر من ذي قبل، لكأنك النقاء بعينه، من بين معلمينا كنت الأحب، معلم اللغة الإنجليزية، ويرن في أذنيك صوت مراقب الصف يؤدي له التحية وهو يطلب من التلاميذ بلغة إنجليزية علمنا إياها أن يقفوا احترامًا له، ثم يقف أمامنا في تلك الصباحات التي لا تُنسى، وكل ما فيه يفيض بالحب والإخلاص، ثم يطلب منا الجلوس بلغته المقتدرة،

يبدأ الدرس وتستدير نحوه جاذبًا نفسك بصعوبة من ذلك المجال الممغنط، والذي اختصر الزمان والمكان بقوة خارقة، وها هو الحاضر تحتويك لحظاته ثانية.

– الورود البيضاء قليلة كما أظن؟

يتساءل مبتسمًا:

– لماذا الأبيض؟

ثم يستطرد:

– نعم.. للأزهار لغتها، ألوانها تبعث في الروح حياة أخرى، إنها جزء رائع مما تنعم به الحياة علينا.

يصمت فجأة، ثم يُشير إلى مجموعة من الباقات كانت ألوانها تتوهج تحت الإضاءة الباذخة لمصابيح النيون:

– هناك باقات اللون الأبيض فيها أكثر من غيرها.

وتوبخ نفسك؛ لا يمكن أن تزعج الرجل أكثر مما فعلت، ثم تُشير بيدك:

– هذه من فضلك والأخرى التي بجانبها.

يبتسم بود وهو يضع الباقتين على المنضدة، ثم يثبت على غلافيهما الشفافين شريطًا ملونًا يحمل اسم المحل وعنوانه ويقدمهما إليه، تمد يدك بتردد، تخاطبه بصوت هامس، تنطق كلماتك لتخب مختالة بذلك الزهو الذي يضج بالحب والعرفان:

– أستاذي الفاضل، أنت لا تتذكرني طبعًا، فالمعلم لا يتذكر كل تلاميذه، ولكنهم يتذكرونه ويحبونه كما الوطن، لا سيما إن كان من طراز الأستاذ حسيب عبد الله.

تراه ينأى بعينيه بعيدًا عنك، يوغل في عمق المفاجأة، ويحادث السكون الذي خيم على كل شيء حوله، بسرعة يلتفت إليه، تنتشر الابتسامة على الوجه الحبيب..

– لا تستغرب أستاذي الجليل، فوجئت بوجودك هنا، وأنا أتهيأ لعيادة صديق عزيز يرقد في المستشفى المقابل لمحلك، اسمح لي باسم سنين الحب والبراءة أن أقدم لك هذه الباقة..

تتجمد الكلمات في فمه، تفر مذعورة ومازال يحدّق في العينين الوديعتين، إلا أن الرجل يسارع لاحتواء الموقف فيقول باسمًا:

– ماذا يمكنني أن أقول سوى إنني ممتن لك أيها العزيز، هديتك هذه عززت ثقتي بالحياة والناس، سأتذكر هذا الموقف طويلاً، وأذكر الإنسان الرائع الذي أود أن أتعرف عليه.

أجابه متأثرًا برقته:

– نبيل هادي.

كمن يستذكر، همس بعد لحظات:

– نعم نعم.. نبيل هادي.. نبيل فعلاً..

صباح جديد

الصباح رمادي اللون، وثمة نسيمات باردة ممتزجة بقطرات المطر الشفاف تلسع جانبي وجهه المتغضن.. هي اللحظات التي يحبها ويحس بالحياة تسري في عروق جسده المتعب، وفكره الممتد في كل الجهات، تشتاقه الآلام فيشتاقها.. يحسها تمد أذرعتها المتعددة الألوان فتحيطه بأشواقها الكئيبة، تتبعه إلى كل الصباحات التي امتدت عبر مسارات حياته المتعبة..

قطع الطريق الممتدة أمامه بلا إحساس بالحياة، أغمض عينيه وهو يحث الخطى نحو الرصيف الآخر للشارع، تطايرت أصوات منبهات السيارات التي تمر من خلفه وأمامه، تساءل بلا اهتمام لماذا يسافرون نحو الجرف الآخر؟!.

تأوه كأنه يتقيأ ذاته، إنها التراحيل التي لا تنتهي، لازمته غصة وهو يتذكر، وتنداح الصور أمامه شوهاء معوجة، كأنها أشباح تتحرك وسط ظلام شفاف، رأى قبل وقت ليس بالطويل قبر والده، وكيف أن شوكتين نمتا وسط ذلك الحدث الذي لم يدرس بعد..

ركب سيارة غصت بالدمى، تنفس بصعوبة وهو يتحرك ببطء نحو مسافة يضع فيها قدميه، كعادته شمل الوجوه بنظرة حزينة،

تركزت نظراته على وجه متعب، تدافعت الأجساد التي معه إثر صعود مجموعة أخرى من الناس، فتحرك معها.. أمسك بحافة كرسي الحافلة كي يوازن وقوفه، وبدأ خياله كالعادة يتحرك إلى كافة الجهات، ثبت نظراته على وجه متغضن وتساءل بامتعاض: أين رأى هذا الوجه من قبل؟، هذا رجل متعب إلى حد الموت، رآه يرفع جفنيه بصعوبة ليرى ما حوله، ذهل، إنه والده!! لا يمكن أن يكون شبيهًا له..

تمنى لو يتعرف عليه، في هذا الحشد كيف يتحرك، ثم يبدأ الحديث معه، اتهم نفسه بالسخف، هي موجة حنين ولا شك، هي موجة فضول أخذته فجأة وسيطرت على اهتمامه، تنبه إلى أنه ذهب بعيدًا مع الخيال.. ارتسم أمامه ذلك القبر، وقد نمت في وسطه شوكتان، إنه شاهد فناء..

أزاح اهتماماته بسرعة.. تنبه إلى أن الحافلة على وشك التوقف في المكان الذي تعود أن يتركها فيه، تسارعت خطواته وسط زحام الشارع، رفع وجهه إلى السماء، رأى قطعات من الغيوم تتحرك بسرعة مسافرة هي الأخرى نحو الضفاف التي لا تعرف، وضع يديه في جيبي بنطاله..

لسعته موجة برد حملها نسيم الصباح إليه.. تسارعت خطواته أكثر من السابق، بعد قليل سيقف أمام محل يدخله بعد أن يفتح بابه، ثم يمضي ساعات النهار يأكل نفسه كالعادة، إنه العمل الذي

لا يحب.. والإيقاع الرتيب الذي طوق حياته فجعله يستخف بكل شيء تعبيرًا عن قرفه لكل ما يحيطه.. حالة امتعاض ترسخت في داخله كأنها الداء، تذكر الأولاد والوجوه التي تنتظر مقدمه، توقف أمام الباب الذي يعرفه جيدًا بلا إحساس، ثم قال لنفسه بصوت مسموع:

- علينا أن نبدأ من جديد.. كما يأتي كل يوم صباح جديد!

٤- ٢- ١٩٨٦



المفقـود

أنا امرأة متعبة بلا حدود، يفترسني سؤال محدد؛ هو ماذا أفعل؟ يأتي بعده سيل من الأجوبة، هي أسئلة جديدة تفتي عن أجوبة.. دوامة تلفني بخيوطها منذ اللحظة التي أفتح فيها عيني إلى أن أغلقهما ثانية.. في ساعة ما من ليل الكوابيس والصور التي لا ألوان فيها.. ابنتي على صغرها تحس بعذاباتي.. تنفعل معي.. تتساءل ببراءة:

- ماما.. متى يأتي بابا؟

أصمت.. أين هو الآن؟ كانت في بعض الأحيان تحاول أن ترسم صورة والدها، تحب الرسم.. تتشاغل به، لكني أجد في كل مرة رسومًا عديدة لأشكال تتشابه مرة وتتباين مرة أخرى، وتتقاطع أحيانًا.. أهز رأسي.. حتى أنتِ يا صغيرتي تعاني؟ وسؤالك الذي لا يشيخ:

- ماما.. يشبه من بابا؟!

أخرج لها بعضًا من صوره.. ثم تقارنها بصورة كبيرة وهو في لباس التخرج لم تستطع الطفلة أن تلم بتفاصيلها كما تريد.. كنت أقول لها:

- إن عمك قريب الشبه لوالدك، لكن في والدك أشياء لا تجدينها في غيره.. حضوره الطاغي، حنانه.. حبه لنا وللحياة، وأجمل ما فيه شيب شعره وهو صبي.. أراه كأنه أسطورة..

تعود لترسم ثانية وتريني الصورة فأحتار.. وأصمت.. في الثامنة من العمر، فارقها وهي في الرابعة، كانت المعركة آنذاك تلتهم كل شيء.. نفذ الصبر.. الأخبار متضاربة، حكمت أين أنت الآن؟ بماذا تفكر؟ آه لو أعلم بماذا يفكر الإنسان حين يواجه ركام الموت وأمواج الفناء..

ويأتي وقت الإجازة.. ثم يمضي أسبوع.. وشهر.. وتبدأ بعدها رحلة الأسئلة والأجوبة.. ومراجعة الدوائر ذات العلاقة..

- حكمت عبد المجيد حميد من فضلك.. ما من جديد؟

تُقلب الأوراق ثم يأتي الجواب قاطعًا:

- مفقود..!

وأهتف مشدوهة بلا وعي:

- مفقود؟ يعني ثمة أمل..

آه.. حكمت لن تجد امرأة في هذا العالم تفتقدك كما أنا الآن، ومرة أخرى:

- أما من جديد؟ حكمت عبد المجيد حميد..

- أختي قلت لك في مرات سابقة إنه مفقود.. ولا أكثر من هذا، إني أقدر موقفك، ولكن المعلومات التي أمامي تقول إنه مع المفقودين..

وتمضي سنة رقطاء، تنساب ببطء كأنها موت يقترب، وتحل ثانية، والأمل يتعب والنفس لا تهدأ، والتردد على نفس الدوائر والمنظمات والمعارف يستمر، ومن كثرة ترددي عرفني الكثير، فكنتُ غالبًا قبل أن ابدأ السؤال اسمع الجواب:

- لا رسالة.. لا جديد..

- يعني...

ويأتي الجواب كريهًا سريعًا قاطعًا:

- يعني مفقود..

هذا زمن لا رحمة فيه، تعلمت في كثير من الأحيان كيف أقطعه، لقد التقيت أثناء تجوالي هنا أو هناك وأنا اسأل أصحاب العلاقة بالكثيرين.. تعلمت كيف أتعامل مع هذا الصنف من الرجال أو ذاك، كنت أرى لغة أخرى تقولها العيون، وأنا امرأة أعرف بطبيعتي هذا النوع من الكلام..

تعلمت الاعتماد على نفسي في كل شيء، حتى راتبه لم أذهب إلى دائرته لأستلمه، أسقطت الأهل والأقارب من حساباتي بعد أن شعرت أن الجميع أسقطوني من الاهتمام.. كنت أفتح عيني وأذني.. أسمع أخبارًا سواء من زميلاتي في الدائرة، أو من

النشرات الإخبارية، منذ متى عادوا؟ لا أدري، لكن أملي لن يخيب.. هو مفقود في حساباتهم، لكن أحاسيسي تقول لي إنه موجود، حكمت على قيد الحياة، لن أفقده بهذه السهولة..

قررت أمرًا.. في الدائرة ملأت استمارة أطلب فيها إجازة لمدة أسبوع، وافق عليها مديري تقديرًا لظروفي، توجهت للدائرة التي كنت أتردد عليها كل هذه السنوات للسؤال عنه، وقفت مع مجموعة من الناس، ثم تقدمت إلى العسكري الذي كنت أتوجه بالسؤال إليه دائمًا.. رأيته يبتسم، قلت وقد شجعتني ابتسامته:

- أرجوك هل من جديد؟

رفع يده ثم قال بمرح:

- نعم كل شيء جديد..

قطعت كلامي.. كان هناك من يسأل أيضًا، زوجات وأمهات ورجال كبار السن، خاطبني وأنا أطل عليه من فتحة في الشباك:

- بدون مقدمات أنا مهتم بقضية زوجك.. معجب بإصرارك وعنادك، وهذا الأمل الكبير الذي تعيشين عليه، المطلوب منك الآن أن تسافري إلى المحمودية.. هناك تسألي عن شخص اسمه (بدأ يقلب بعض الأوراق بين أصابعه وتابع) اسمه عبد الأمير كاظم علي، هذا أسير عاد منذ فترة قصيرة، عساك أن تجدي عنده ما يريحك.. أرجو لك التوفيق..

أذهلتني المفاجأة.. هطلت دموعي مرة واحدة.. أحسست به قريبًا مني.. تمنيت أن أرمي نفسي بين يديه.. ضابط برتبة ملازم أول ولكنه مثال في النبل.. انسحبت بسرعة بعد أن جففت دموعي ثم أسرعت إلى البيت.. انتظرت عودة "سها" من مدرستها.. اصطحبتها معي إلى المحمودية.. نزلت المدينة.. لا أعرف أحدًا منها.. قطعت شارعها الرئيسي وابنتي إلى جانبي أمسك يدها، وهي تسألني بين الحين والآخر:

- ماما إلى أين؟

أتجاهل السؤال.. لمحت دكانًا يبيع العصائر.. توجهت إليه وطلبت منه زجاجتي بيبسي.. اعتذر ثم قدم لي قدحين من الشربت، لا أدري لماذا توسمت في هذا الرجل نبلاً.. قد يكون سببه حبي للناس وللحياة، سألته بصوت خافت خجل:

- عمو من فضلك هل تعرف أحدًا باسم عبد الأمير كاظم علي؟!

تجاهل السؤال وهو يقدم لأحدهم قدحًا من الشربت طلبه على عجل، أعدت عليه السؤال ثانية بعد أن انصرف الرجل وبقيت وحيدة أمام محله، قال وهو يتظاهر بتنظيف يديه بمنشفة قديمة:

- نعم أعرفه.. ولكن لماذا؟

قلت متضرعة:

- لي زوج مفقود منذ أربع سنوات.. أردت السؤال عنه.. قالوا لي إنه عاد حديثًا وعسى أن أجد لديه بعض المعلومات..

صمت الرجل قليلاً ثم خرج من الباب الجانبي لمحله، وقف أمامي وقال وكأنه يأمرني:

- تعالي معي..

سرت وراءه.. قطعنا الشارع إلى الجهة الأخرى، دخلنا زقاقًا ضيقًا، قال لي:

- البيت الثالث على الجهة اليمنى..

انسحب الرجل قبل أن يسمع مني كلمة شكر.. وقفت أمام الباب أحاول أن أسترجع أنفاسي وهدوئي، بعد فترة قصيرة طرقت الباب ثم انتظرت قليلاً، وقبل أن أعيد الطرق ثانية فتحت الباب امرأة تجاوزت الخمسين من العمر، على وجهها علامات خوف قديم، قلت بسرعة:

- خالة أنا من بغداد.. هذا بيت عبد الأمير كاظم علي؟

أجابت وصوتها يتهدج قليلاً:

- أي نعم.. ماذا تريدين؟

- أرجوكِ اسمحي لي بالدخول.. دعيني أقابله..

ارتفع صوت من الداخل قويًا آمرًا:

- افتحي الباب يا أماه وليفعل الله ما يشاء..

أفسحت المرأة المجال أمامي فدخلت البيت.. بناء قديم.. جلست على كرسي في غرفة جانبية قادتني إليها.. أغلب ما فيها من أثاث

وفرش قديم، بعد قليل دخل الغرفة شاب يتعكز في سيره، قال بصوت لا طعم فيه:
- أهلاً وسهلاً..

أجبته بحياء ولكن بسرعة:
- أهلاً بكم.. جئت من بغداد للسؤال عن زوجي المفقود..

قاطعني ثائرًا:
- ما هذا؟! أين أهرب؟ الكل يطاردني ويبحث عني.. هذا من بغداد وآخر من الحلة.. وذاك من الرمادي.. وتلك من بلدتي.. هذا مفقود.. وذاك مجهول.. وهذا معوق، وأنا أصابني الجنون.. أي والله الجنون، لم أعد أحتمل، سوف أترك البيت قريبًا وأهرب منه إلى جهة أخرى..

انسابت دموعي دون وعي مني وإرادة، ارتفع صوت "سها" باكيًا خائفًا، تقدمت والدته منها فربتت على كتفها.. هدأ الشاب قليلاً، ثم وكأنه ندم على ما فاه به قال بأسى:
- أنا آسف أيتها الأخت.. أعصابي تعبت تمامًا.. أكثر من أسبوعين مضت وأنا كالمطارد.. كل يوم يأتيني شخص أو مجموعة، ثقي أنا لا أعرف إلا أعدادًا قليلة من الأسرى كانوا معي، ماذا يتصورون؟ من أين لي أن أعرف كل هذه الأسماء التي يقدمونها لي!

قلت بعد أن شربت ماءً قدمته والدته لي وكذلك "سها":

- أشكرك على كل حال..

خاطب والدته بهدوء:

- يمه.. الشاي..

قلت ومشاعري تقطعني:

- جئت إليك ليس كالآخرين، أنا أعرف أنك أسرت في نفس المعركة التي فُقد فيها زوجي..

ظهر على وجهه تأثر عميق، سمعت صرير أسنانه.. التمع شيء غريب في عينيه كأنه الهول، ثم سألني:

- أي معركة؟

قلت بثقة:

- شوش وديسفول..

أجاب وعيناه تتذكران:

- نعم نعم.. هذا صحيح..

أكملت:

- كان هناك.. قالوا لي إنه مفقود.. أربع سنوات لم اسمع غير كلمة مفقود.. مفقود..

سألني بسرعة:

- ما اسمه؟

- حكمت عبد المجيد حميد..

صمت لحظة.. وضع يده على جبهته.. تجولت عيناه على صفحة وجهي.. طال صمته.. جاءت والدته بالشاي، شربه بسرعة ثم بدأ يردد:

- حكمت عبد المجيد.. أبو "سها".. موظف في المصرف الزراعي..

أذهلتني المفاجأة.. صرخت وأنا أفتح ذراعي لأضم "سها" بينهما:

- هو.. هو نفسه.. كيف صحته.. هل تعرفه تمامًا؟

بنفس الصوت الهادئ الحزين أجاب:

- نعم أعرفه.. أصيب في ساقه.. عولج وصحته جيدة، قبل أن تُقرر عودتي أعطاني عنوان البيت والدائرة! (صمت قليلاً ثم وكأنه يحدث نفسه) الأعظمية.. راغبة خاتون.. أم "سها".. موظفة في وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الاسم "سها عبد الكريم".. أنتِ أليس كذلك؟ لم أكتب العنوان حفظته غيابيًا.. رقم الهاتف .....

اجتاحني فرح مجنون.. قبّلتُ والدته في رأسها ويديها وأنا أردد:

- أبو "سها" حي، أبو "سها" حي..

قالت بثقة:

- هو حي وسوف يعود..

في الطريق إلى بغداد غاب عني كل شيء إلا صورة رجل استحوذ على مشاعري فأعطيته العمر كله غير نادمة أو آسفة.. امتلأت

بالحب لكل الناس، ضممت ابنتي إلى صدري.. أيقنت أن الحياة تتقدم وأن أملاً يلوح في الأفق يبشر بغد الشموس المضيئة..

إهداء : إلى (ر) الرمز والعطاء

١٠ – ٧– ١٩٨٦

غداً، وعلى مدى العمر

في الطريق الذي تطرز بقطرات من مطر تشرين؛ سارا جنبًا إلى جنب، كانا صامتين، وقع أقدامهما على إسفلت الشارع يشكل مع وقع قطرات المطر صوتًا له غموض يدغدغ الأعماق.. كانت بثوبها الأبيض وطولها الفارع وسكون الموقف توحي بعالم ملئ بالأسرار.. وكان هو صامتًا، تتدافع في داخله ينابيع الذكريات كنهر تصب فيه روافد عديدة.. لم يرها منذ سنوات ثلاث، تقابلا في ديوان الوزارة صدفة بعد أن انقطعت أخبارها عنه وضاع هو في زحام مرعب، عرف منها ما أراد. تداعى أول الأمر ثم تماسك أخيرًا، لم تخف حالته عليها، طلب أن يراها، صمتت.. ثم وافقت بهزة من رأسها، قال يثير فيها الماضي كله:

- في نفس المكان؟

ردت بأسى وهي تتساءل:

- أمازلت تذكره؟!

- إنني أزوره دائمًا.

في الشارع الذي يمتد من باب الجامعة الخلفي والمطل بكبرياء على شارع فلسطين والذي طالما سارا فيه، تتداعى أحلامهما

وتكبر، أخذهما صمت رائع، كأن اللقاء قدر بينهما، أخذه التيار، تذكر تمردها.. غضبها ورفضها.. لكن زوج أمها نجح في إجبارها لتتزوج الشاب الذي تقدم لطلب يدها، قالت بعد أن أتعبها الصمت، وهي تحس قلقًا لذيذًا:

- أنجبت منه طفلة.. وهو الآن في الجبهة.

صمتت قليلاً ثم أكملت بصوت آخاذ:

- معلومات لابد من معرفتها.. بل أريدك أن تعرفها.. أما السعادة.. فأمرها مختلف.. هناك أكثر من وسيلة؛ البيت والسيارة والسفر وعالم الفيديو والأصدقاء وغير هذا أو ذاك.. تزين الحياة ببعض البهجة وإلى حين، أما الخيال؛ هذا المسافر الجوال الذي لا يتعب ولا يمل فإنه يطاردني وأطارده وكأنه قدري، يذهب بعيدًا فأظنه اختفى، ثم لا يلبث أن يقترب ليبتعد ثانية، وبين كل هذا فأنا لم أعد أعرف هل أنا سعيدة أم لا، بل إنني لا اسأل نفسي هذا السؤال..

التفتت إليه وعيناها بحيرتا شوق وعذاب:

- وأنت.. ما جديدك؟

ظل صامتًا.. لم يجبها، كان يريد أن يسمع فقط، ثمل.. تمايل، تدفق حوله نهر الحنين الذي صار مستحيلاً، ارتفع صوته آت من بعيد:

- ليس لي جديد إلا أنتِ..

قالت تعاتبه وتقطع عليه مسار الذكريات:
- أقصد عملك.. حياتك..

- موظف في وزارة التخطيط.. مازلت أبحث عن خيط يشدني لواقعي بعد أن تركني أجمل ما فيه ومضى..

- سامر.. أرجو أن تسمعني.. ليس لنا حق في أن نظلم بعضنا أو مشاعرنا، قد تكون هذه المشاعر أثمن ما تملك، بل هي كذلك فعلاً، لكن اليأس والقنوط لا يجب أن يجنيا علينا، الثقة بالحياة كبيرة، قرأت مرة لشاعرك هذا المعنى:

"أجمل الأطفال هو الذي لم يولد بعد

وأجمل الغابات تلك التي لم نسافر إليها

وأجمل الساعات تلك التي لم نعشها بعد"

وبضحكة أنيقة قالت:
- مع الاعتذار للشاعر إذا كنت قد أضفت أو حذفت..

اشتدت رغبته في أن يلثم جبينها، تجاهل رغبته وقال مبتسمًا:
- صرتِ شاعرة..
- الفضل لكتبك، ألم تعرني كثيرًا منها، مازلت أحتفظ ببعضها اقرأها في أوقات خاصة، أشم فيها رائحة الماضي وعبق أحلى السنوات وأغلاها..

قطعت حديثها فجأة.. سألته باهتمام:

- بالمناسبة.. ما هي أخبار الحرب.. متى يكون السلام؟

رد بألم واضح:

- لا أحد يعرف.. ولكن لكل شيء نهاية..

ثم بانتباه مفاجئ:

- لماذا أنتِ قلقة؟

- ألستُ محقة في قلقي عليه! لم يبخل علي بشيء.. رجل دافئ.. مثقف.. ليتك تلتقي به، إني واثقة إنك ستعجب به.. لكن..

قال بحذر:

- ماذا؟

قالت وهي تنظر إلى لا شيء:

- ولكن هذا القلب اللعين لا يريد أن ينسى..

انتقل حذرها إليه فقال بتوجس:

- سوف يأتي الوقت الذي تنسين فيه كل الماضي..

بغضب.. أو ما يشبه الغضب اجابته:

- الماضي.. هكذا.. بهذه البساطة ينسى الإنسان أغلى سنوات العمر، من أين له بتلك الطاقة والقدرة، وهل هناك ما ينسى فعلاً.. تصور أنني أسميت ابنتي سامرة حتى يبقى اسم سامر ماثلاً أمامي في كل لحظة..

قال بمزيج من الفرح والامتنان:

- آه.. سامرة.. هل هي حلوة مثل..

تضاحكت بعبث واضح، قلت كأنما تريد أن ترى تأثير الحالة عليه:
- أبوها جميل.. وأمها حلوة كما ترى.. فلماذا لا تكون هي كذلك..

بصوت ذبيح سألها:
- لمياء.. أصدقيني.. هل يحبك أبو سامرة كما كنت تتخيلين الحب؟

كان صمتها هذه المرة كأنها ضاعت في غفوة مفاجئة، بعد حين ارتفع صوتها حالمًا:
- يحبني نعم.. لكن كما أريد أو أتمنى لا.. اسمع يا سامر، كنت حلمي ومازلت، لم افتح قلبي لغيرك، ولكن للحياة صيغًا مختلفة كما يبدو.. هناك العلاقات الاجتماعية ولها قوانينها كما نعلم، إنني أكلم إنسانًا اعلم مدى إدراكه وثقافته، ما يخفف عني إنك أو غيرك من الناس لا يستطيع أن ينفر منه، فهو كما قلت لك لطيف في كل شيء، تبقى مشاعرنا لا نملك السيطرة عليها في كل الأحوال، لقد طالبتني بلقاء، وها أنا أسير معك في رياض ذكرياتنا، لم أنسها يومًا.. ولم أنس كل كلمة قلناها لكنها الحياة يا عزيزي سامر..

صمتت قليلاً كأنها تعبت من الكلام ثم عادت تقول كما لو إنها تواجه ذاتها:
- لابد لك أن تعرف إنني لم أنم ليلة أمس إلا لمامًا.. كان هناك سؤال أو رغبتان، هل أقابلك أم لا؟، لم أفكر كما تفكر الأخريات،

أنت تعلم إنني لست في هذا المستوى، ثق لو أني صارحته بذات نفسي وما يمور في أعماقي من رغبات ومشاعر لشاركني بأقصى صدق، ستلتقيه يومًا وتعرفه وتعجب به، وتذكر دائمًا أن الحياة قد تصلح ما تفسده الأيام.. لكنها المرة الأخيرة التي سأراك فيها على هذا النحو، قد نلتقي ثانية ولكن في ظروف أخرى ليست لدي فكرة عنها الآن، والآن ستسمح لي أن أفارقك عزيزًا على نفسي كما كنت، فقد أرجع إلى البيت وأجده قد عاد من الجبهة، فهذه أيام إجازته.. وداعًا وشكرًا..

توقف في مكانه مسمرًا وابتعدت هي رويدًا رويدًا.. ودعها بثقة أنه سيراها ثانية، وعلى مدى العمر!

٢١ – ١٠ – ١٩٨٢

أصداء في ليل طويل

غادرني النوم تمامًا.. سافر بعيدًا وخلف ثقلاً في أجفاني، وسهومًا شديدًا يصدي في الوجه كأنه آثار مرض لم أتعافَ منه إلا منذ وقت قصير، طلبت من آمر القاطع أن يكون وقت حراستي بعد الواحدة ليلاً، استجاب لرجائي، وطلب أن أعتني بنفسي، صديق منذ أيام الدراسة، تفرقت بنا الطرق زمنًا طويلاً، ثم التقينا.. تذكرنا.. تأملنا.. ملأ القلبين والعقلين أسف لم يعد له ما يبرره، طافت بنا الذكرى في تلك العوالم الساحرة.. الطفولة، أزقة المحلة، سرقة ثمار الحدائق القريبة من بيوتنا، أيام الدراسة وأسماء الزملاء، ثم نكبر.. وها نحن نلتقي في قاطع واحد يكون فيه "رشدي علوان" آمري.. قلت له مداعبًا:

– لا تحمل همًّا.. سأكون مع البقية من الإخوان..

أجابني فرحًا:

– شئت أم أبيت ستكون معي.. قريبًا مني.. زياد دعني أتذكر طفولتنا وصبانا ثانية..

ابتسمت ثم هززت يدي:

– هنا يا رشدي؟! نرى الطفولة والصبا؟ دعك من هذا الآن..

ليل بهيم.. ظلام ثقيل.. شعرت كأنني في مجاهل كونية بعيدة، حاولت رؤية أصابعي لكني لم أستطع.. أقف وحيدًا في هذه الجهة.. ثمة مرتفع على مبعدة مني.. قدرت المسافة بيني وبينه على ضوء رؤيتي له نهارًا.. وفي الجانب الآخر وكالعادة يقف رجل كبير السن تجاوز الخمسين بخطى حثيثة. كان رفيقي في نوبة الحراسة، يُسمعني بين الحين والآخر بعضًا من عطاسه أو سعاله، فأجيبه بشخرة من أنفي أو عطسة خفيفة أشعره بأني مازلتُ أحيا. هذا ليل أصداءه ثقيلة على النفس، تكثف حتى كأن ألوان السواد قد ذابت فيه وأصبحت جزءًا منه. في الليالي السابقة لم أشعر بضجر كهذا يملأني ويترك في عقلي كل هذا الحزن..

سوف تمضي إذًا؛ دعني أراك جيدًا.. زياد أنت حاضري وكل ما يأتي من الزمن.. لا داعي لقلقك يا عزيزي، سوف تعود، أشهر قليلة من عمر الزمن تتخللها إجازات، أوقاتنا لا تتسع لسعادتنا.. سأراك في كل إجازة، المسافة بعيدة.. هل ستقطع كل هذه الطرقات لتأتي إلي أولاً، طبعًا أكيد.. فأنت يا أمل أولاً وثانيًا وإلى ما لا نهاية، ألا تشعرين يا امرأة كم أشتاقك؟ في باب الدائرة التي تعودت أن أنتظرك بالقرب منها، كما في المرات السابقة سوف أحتضنك أمام الموظفين والموظفات.. أمام الناس جميعًا.. تجيب ضاحكة نحتاج لمصور ومخرج لإكمال اللقطة، آه يا ناعمة الملمس، يا حريرية المشاعر، يا ألق العيون، أيتها المرأة التي

أحب، من أين لي أن أختصر المسافات والزمان والمكان لأكون بجانبك، ولكن لا بأس، هي ليلة تمضي كما مضت من قبل سواها.

آه والعزيز الذي مضى ولا يأتي إلا لمامًا، أرهقني.. أتعبني، أكاد أصرخ بصوت عالٍ.. أريد النوم.. ساعة فقط، حتى لو وضعت رأسي بين هذه الحفر، أو على حجر صلد، لا يهم.. لا يهم، فقط ساعة نوم.. الله على تلك الأيام، النوم فيها لذة.. والسهر على ضفاف دجلة مع الأصدقاء متعة لا تنسى، هسيس أصوات تحت قدمي تصيبني بالقلق، هذا مكان وعر، قد تكون الآن بالقرب مني حية تنساب نحوي، أو عقرب جبلي يستعد لغرز سمومه في مكان ما، أو أي حيوان مفترس.. لا أدري شيئًا عما يحيط بي، ظلام كثيف ينزل ستارة سوداء على عيني ونفسي، ويقطع الصمت المبتل بالذكريات الطرية.

صوت رشدي محذرًا:

- زياد.. اطفئ سجارتك، هل تريد أن تكون هدفًا سهلاً؟!

رميتُ ما تبقى منها ثم سحقته..

- بماذا تفكر الآن؟

سألني وثمة قلق واضح في تجاويف صوته، قلت كأني أحلم:

- بها يا رشدي.. متى يأتي الفجر؟ أحسه غادرني كما مضى من قبله النوم.. هذا ليل يؤرخ له يا رشدي.

- لا تيأس.. عند الفجر سوف تتسلم ورقة إجازتك مع بقية الأخوة، سأتركك الآن ثم أمر عليك في وقت آخر، هناك ثمة واجبات، وداعًا زياد.

ظلمة الليل الوحشية، وأصوات غامضة آتية من جوف المجهول، سعال رجل لا يبعد عني كثيرًا، بندقية باردة تثقل كتفي، وحلم يراود الذاكرة عن أيام قادمة و... سمعت أصوات خطوات تتسارع نحوي، صحت بفزع وقد أمسكت بندقيتي متأهبًا:

- مَن؟

- زياد لا تخف.. أنا رشدي..

وقف لاهثًا.. قريبًا مني، جاءني صوته متعبًا يشي بتعبه وإرهاقه..

- هناك تحرك في الجهة الأخرى من القاطع..

- ماذا تقول؟!

أكمل بنفس الصوت المجهد:

- قبل قليل تسلمنا الإشارة.. علينا أن نتأهب.. سوف أمضي الآن لأمر على جميع الرفاق، خذ حذرك.. وداعًا..

اجتاحني غضب كأنه النار، سرى في كل كياني، نسيت تعبي وانقطع خيط الذكريات الندي، أحسست برغبة مفاجئة للنوم، في ثوان تفجر الغضب، ارتفع صوت انفجار.. ثم ثان.. وانطلقت الأسلحة تعزف بجنون الظلمة، شبَّت بعض الحرائق هنا وهناك، تكثف الرمي.. اشتد دوار المعركة، بدأت أطلق وأنا أتحرك يمينًا

ويسارًا، ثمة أشباح تتحرك.. تقترب.. أخذتني موجة غضب نحو كل شيء حولي، رحت في سبات.. التمعت في الذاكرة أشياء غريبة، آه ما ألذ النوم..

تنبهت على وجوه غريبة في مكان غريب، متى حدث كل هذا، حاولت الحركة، لم أستطع.. قدماي مربوطتان إلى أعلى.. ويداي ترقدان بجانبي لا حراك فيهما.. وحامل تتدلى منه زجاجة مملوءة بسائل بني، رأسي يدور، الأشياء تبدو مهزوزة أمامي، جاءني صوت متعب:

- زياد.. أنت بخير؟

أحسست براحة غريبة كأنني أوشك على سفر..

- رشدي...

قاطعني صوت رقيق:

- لا تتكلم.. لا تبذل جهدًا من فضلك..

أكملت بصوت مجهد، ولكن بهدوء غريب:

- رشدي أنا بخير.. لقد عاد المسافر ثانية.. رشدي.. إنني أنام.. أنام.. أنا.... آه..

١١ – ٨ –١٩٨٦

مع الفجر تأتون.. وأمضي

نهضوا مبكرين.. هلع يلتمع في عيون الأولاد، ويخيم على البيت حزن ثقيل، ليلة مضت ليست كمثيلاتها، قالت زينب بصوت مرتعش:

- بابا.. ترجع بالسلامة..

ابتسم بحنان.. تقدم منها وقبلها في جبينها، استدار إلى علاء، شمله بنظرة حب، رأى صباه فيه.. قبّله بصمت.. احتضنه بشغف، ليلى الصغيرة قفزت إليه كأنها فراشة، رفعها بين يديه إلى أعلى، تتهدل خصلات شعرها على جبينه.. أراحها على صدره ثم بدأ يربت على ظهرها:

- لم أفارقكم من قبل.. لكنها الضرورة يا أولاد، ما العمل؟ علاء يا طفولتي، لقد بقيت مع والدتك ليلتين بعذابهما وهي تلدك.. لم أذق طعم النوم ولو لساعة، ومع الفجر استقبلت النبأ السعيد.. زينب كان وجهك صبوحًا مشربًا بلون خيوط الفجر الأولى، فكنت معه على موعد، ليلى كذلك.. آه.. كلكم يا قطعًا من قلبي مع الفجر تأتون، وها أنا بعد قليل مع الفجر أغادركم.. إنها المرة الأولى.. ما أصعب الفراق بعد عمر طويل، أكاد لا أصدق.. ولكنها الضرورة والواجب..

تجول بين غرف البيت، شمله بنظرة هي مزيج من حب وحزن وشعور أن كل ما في زواياه عزيز عليه.. ارتفع صوته ليناً:

- عائدة.. هل وضعتِ كل الحاجيات في الحقيبة؟

جاءه صوتها متعبًا يشي بالحزن:

- نعم.. كل ما تحتاج إليه.. تفضلوا الفطور جاهز..

توجه مع الأولاد إلى المطبخ الصغير.. كانت هناك مائدة اصطفت من حولها مجموعة من الكراسي، جلسوا كعادتهم، امتدت يده إلى قدح الشاي.. رفعه إلى فمه وأخذ منه رشفة، أحس أن شيئًا ما يسد عليه شهيته للطعام.. لكنه أجبر نفسه، فتناول مما كان أمامه مشاركة للجالسين معه ثم أكمل شرب شايه.. أخرج سيجارة أشعلها وبدأ دخانها ينتشر في فضاء المطبخ، كانت عائدة تراقب الموقف، قالت بحنان:

- لم تأكل كعادتك..

- لا أحس بطعم الأكل..

نهض متثاقلاً فتبعته.. بقى الأولاد يكملون تناول فطورهم وهم يحسون ثقلاً في نفوسهم..

- هذه أول مرة تبعد عنا منذ أن تزوجنا في بداية السبعينات..

حاول أن يجاريها:

- لا عليكِ يا عائدة.. سأرجع إليكِ لا تقلقي يا عزيزتي..

ابتسم ثم أكمل ليخفف وطأة الحالة:

- كانت الليلة قصيرة وكنتِ رائعة.. كيف حال الحفل؟!

غضت بصرها وابتسمت بحياء.. أجابت فخورة:

- كنتَ بطلاً كالعادة.. هي ليلة لا تنسى..

صمت.. غاص في عمق اللذة التي اجتاحته.. لكن سأمًا عارمًا طاف على وجهه.. أحست به، أكملت وكأنها تداعبه:

- كنت ملاحًا ماهرًا..

ابتسم بصدق ورد بهدوء وفخر:

- كالعهد بي دائمًا..

نفث دخان سيجارته ثم تساءل:

- لماذا تتجمع كل هذه الأسئلة وفي مثل هذه المواقف.. لماذا تنساب الذكريات على الفكر وينشط الخيال مستعيدًا كل مخزونه.. آه.. عائدة.. هل تذكرين..؟

اتسعت عيناها السوداوان وهمست:

- ماذا..؟

- اللقاء الأول بيننا؟

تأوهت بألم.. التمعت دموع بين الأهداب الطويلة:

- ذلك التاريخ لا ينسى.. رعا الله كلية التربية، إن ذكرياتها لا تشيخ..

عاد الأولاد.. امتلأت صالة البيت بأصواتهم الناعمة، قال لهم مخاطبًا:

- أرجو ألا تتعبوا ماما.. كونوا كالعهد بكم.. زينب.. علاء.. وأنتِ أيتها العزيزة ليلى..

قالت الطفلة بسذاجة وصدق:

- بابا.. أحبك..

- وأنا أكثر يا حبيبتي..

أزف الوقت.. بدا الفجر في الخارج ينشر نفسه بهدوء على المدينة، انتصب واقفًا.. وقفت عائدة أمامه، غمرتها موجة حنان طاغية، احتضنته، أحس بدموعها تتفجر من عينيها وتنهمر على أديم وجهها.. ارتفع صوتها رويدًا رويدًا.. لحقت بها زينب وكذلك ليلى، علاء بقي صامتًا، دموعه في عينيه تلمع كأنه رجل خبر معنى الحزن، قبّلهم جميعًا وشعور مخيف يملأ كيانه أنه لن يراهم ثانية، حمل حقيبته ثم فتح الباب ومضى مسرعًا والفجر يحتضن الحياة.

٢٢ - ٣ - ١٩٨٦

لقاء.. في صبيحة يوم رمادي

تمعن في الوجه المقابل له من خلال زجاج معرض المصوغات الكبير؛ تخلل شعره الخفيف بأصابع مرتجفة.. احتبس صوته في فمه، كادت تنطلق منه صرخة ولكنه كتمها.. هي.. هي لم تتغير كثيرًا، ولكن ما هذا السواد الذي تغرق فيه حتى رأسها؟!.

خصلات تتأرجح على جبهتها، بها شعرات بيضاء لامعة، ثمة غضون على صفحة الوجه، العينان متعبتان والجسم امتلأ قليلاً لكن مازال جميلاً.. الرجل معها يبدو أكبر سنًا، تجاوز الأربعين لكنه مليء بالحيوية والنشاط..

تحركا قليلاً نحو باب المحل، تقدمته وهي تسحب الباب ثم تدخل إلى المحل وهو وراءها، سلمت بغير اهتمام:

- صباح الخير..

أجابها وهو يطفئ مشاعر كثيرة احتوته بدفق غريب:

- أهلاً.. صباح النور..

كاد أن يقول لها أهلاً فادية أية صدفة وأي تاريخ بعد عشرين عامًا يحق للإنسان في زمن صعب أن ينسى حتى نفسه ولكن مهلاً..

أخرجت من حقيبتها بعض الأساور قدمتها إليه، قالت وهي تنظر إلى المعرض المليء بالمصوغات اللامعة:

- أود أن تبدلها بأساور جديدة.. من هذا النوع..

وأشارت إلى مجموعة أساور كانت معروضة بشكل أخاذ، مد يده وأمسك بالأساور.. وضعها على المنضدة أمامه.. أشار إليهما أن يجلسا، كان مجهدًا.. حاور نفسه، أحقًا لم تعرفه، هل تغير إلى الحد الذي جعلها لم تنتبه إلى الواقف أمامها، عشرون سنة أو يزيد، عشرون مضت.. زمن اتسع لأحداث كبيرة، وضع بصماته على كل شيء، الوجوه.. العلاقات.. الأخلاق، سقط في بعد سحيق، طالما هبت عليه نسيمات الماضي، انتبه على صوتها يسأله:

- كم تساوي؟

أجاب كمن فوجئ:

- نحن لا نبدل سلعًا بأخرى لأن الأسعار تختلف كثيرًا..

- لا بأس.. سوف ندفع فرق السعر.

ابتسم.. لم تنظر ناحيته، كانت نظراتها مثبتة على السلع التي تملأ المكان، في غمار الموقف المرتجف بالقلق والحنين والذكرى؛ عزم على أن يعرف نفسه بعد أن يأس منها، بصوت امتلأ حنينًا وشوقًا وجه سؤاله إليها:

- هل ينسى الناس المعارف والأصدقاء بهذه السهولة؟!

انتبه الرجل الذي يرافقها فجأة.. أما هي فجددت بصرها في وجهه، سبقها الرجل الذي معها قائلاً:

- أسف إذا لم أتذكر.. ولكن..

أجابه مقاطعًا:

- لا تأسف يا أستاذ.. إنما أنا أخاطب الأخت فادية..

هبَّت واقفة وصاحت بفرح:

- مَن.. أنت؟! هل يمكن هذا؟ بسام.. أقصد أستاذ بسام؟!

مدت يدها.. صافحته.. قالت بسرعة وهي تلتفت إليه:

- زوجي.. سالم عبد الأحد.. مدرس..

- أهلاً أستاذ سالم..

- أهلاً بكم..

استأذنهم ودلف إلى داخل المحل من باب صغير ثم خرج وهو يمسك زجاجتي بيبسي وضعهما أمامهما، قال وهو يفرك يدًا بيد:

- عرفتك منذ أول لحظة وقفت فيها أمام المعرض.. كيف لم تعرفيني؟

- هذا موقف لا أغفره لنفسي..

التفتت إلى سالم قائلة:

- سالم.. كان الأخ بسام جزءًا من عائلتنا، وأمي تحبه كما تحب يوسف وفرج وعادل..

ابتسم زوجها بعد أن أكمل على ما في الزجاجة:

- سوف يبقى أخًا لنا..

قال بسام:

- كيف صحة الوالدة؟ انقطعت أخباركم عنا..

بدا صوتها متعبًا وهي تجيب:

- توفيت منذ زمن.. أكثر من ثمان سنوات.

تمتم بصوت خفيض:

- إلى رحمة الله.. تلك المرأة الطيبة كانت تناديني يا ولدي.. ابني كما تنادي أولادها.. يالزمن الشقاء.. كانت تنبض بالحياة رغم كبرها..

ران صمت قصير.. رفع رأسه قليلاً ثم سأل:

- ويوسف.. لم أعد أراه.. ما هي أخباره؟

ما هذا؟ دموع تلمع في العينين!!

- مات إثر سكتة قلبية..

قال ملتاعًا:

- لا.. متى كان ذلك؟!

- العام الماضي.. كان متعبًا.. يدخن ويشرب كثيرًا، أضرب عن الزواج.. كان يقول لا ينبغي أن نتمتع بشيء وكل ما حولك ينذرك بالفناء.. ورغم هذا أحب الناس.. أعطاهم الكثير..

تنبه على صوتها:

- وجدناه صباحًا وقد فارق الحياة..

يوسف أحقًا تموت.. أية شوارع لم تطأها أقدامنا.. أية أحلام كانت تملأ الخيال.. أتذكرك وأنت تتنسم كل ما حولك، تريد أن تنفث فيه حياة أخرى.. يوسف يا صديق الصبا.. ويا رفيق الأماني الغالية.. أحقًا مضيت دون رجعة؟!.

أحس أن قدميه لا تحملانه.. جلس على كرسيه.. أخرج سيجارة وأشعلها.. قدم أخرى إلى سالم وتساءل:

- كيف حدث هذا؟

قال سالم:

- بعد عودته من الجبهة تدهورت صحته تمامًا..

تساءل بسام بعجب:

- هل ذهب إلى الجبهة؟ أنا أعرف أنه بكلية واحدة!

قالت فادية بصوت مرتجف:

- شارك في قاطع الكرادة.. قدَّم أوراقه.. حاول كثيرًا، في الإجازات كنت أحس بتدهوره المستمر..

يوسف في قاطع للجيش الشعبي.. مريض وغير مؤهل.. قال بصوت أجش كمن يخاطب نفسه:

- صرت أخاف أن أسأل عن الآخرين!

فاجأته كأنها تجهز عليه وقد انسابت دموعها:

- فرج استشهد في شرق البصرة..

رفع يده كأنه يقول لها كفى أرجوكِ.. أكاد أختنق.. لكنها استمرت بحرقة وصوتها يتهدج ملتاعًا:

- عادل أكمل دراسته الجامعية.. استشهد منذ بضع شهور في القاطع الشمالي..

ربت سالم على كتفها.. قال بصوت خفيض مخنوق:

- فادية.. أرجوكِ كفى..

رنت إليه بعد أن مسحت دموعها:

- وأنت متى تقاعدت؟

- قبل سنتين.. وأعمل هنا منذ سنة

قالت برجاء:

- ألا تزورنا..

أجابها:

- أمازلتم في نفس البيت؟

قالت بحزن:

- لم يعد نافعًا لنا.. بعته، ونحن نسكن الآن في شقة صغيرة..

مد يده.. سحب زجاجة المعرض، ثم أخرج الأساور التي طلبتها، وضعها في مظروف دفعه إليها.

قامت واقفة، رنا إليها بود، قالت وشبح ابتسامة يرف على الشفتين:

- والفرق؟

- دعي ذلك الآن..

قالت بلوعة:

- لم تقل.. متى تزورنا.. دعني أرى إخوتي فيك.. أرجوك بسام..

مسح دموعًا ترقرقت بين الجفون ثم قال:

- قريبًا.. قريبًا..

صافحه سالم ثم صافحته، أبقت يدها لحظة في يده.

ارتفع صوتها في توحد مخيف مع الموقف ثم استدارت خارجة..

أحس بالوحدة وبأن الحياة بدأت تتوقف.. وأن رمادًا كثيفًا يغلف كل شيء حوله.. وفي الخيال يتضح تسابيح كما لو كانت آتية من عالم فان..

٢٠ - ٨ - ١٩٨٦

الحلــم

(١)

دعيتُ لاجتماع تربوي في القاعة الغربية المتوسطة؛ لإيضاح بعض المعلومات الإحصائية عن مدرستي، اصطحبت بعض الأوراق معي، ولأني أحفظ أكثر المعلومات بسبب التعود والتكرار؛ تركتها جانبًا أخر الأمر، في السنوات السابقة كان المعاون هو الذي يقوم بالمهمة، هذه المرة وجدتني مشتاقًا لكي أطل بعد هذا العمر على بعض المناطق التي كنتُ أرتادها يومًا كالطائر المحلق ومعي رفاق الصبا، بلا هموم ولا متاعب، في الصباح وقبل مغادرة البيت لمحت ابتسامة على وجه زوجتي، قالت تداعبني:

- أراك سعيدًا على غير عادتك.. هل هو يوم إجازة يا أبا سامي؟.

لم أجبها، شملتني إغفاءة كأنها الحلم، رسمت صورة ابتسامة زائفة على وجهي وأنا أنظر إلى المرآة أمامي، تساقطت مشاعري دموعًا في الأعماق، وبدأ الألم ينطق كأني أرى نفسي أول مرة، هذا الشيب الذي جلل الشعر كالغطاء، والنظارة التي لازمتني منذ زمن بعيد لتعب في العينين، عانيت منه ولا زال حتى أصبحت جزءًا من وجهي، أما جسمي الذي كنت أظنه لا يشيخ، دبَّت فيه أعراض الوهن.

آه إن الشعور بالشيخوخة أمر مؤلم، لكن روحي مازالت تثب كأنها الحصان الجامح، تطمح وتريد.. تغني في لحظات.. تحب بعنفوان الشباب وتوهجه، اشرب كأسي بلذة المفتون، أعشق لذائذ الحياة، كل هذا وأنا أشرف على نهاية الرحلة، يتدفق في أعماقي شعور بالشباب كأنه مد البحر، أود أن أعود كما كنت صبيًا لأزور نفس الأماكن، أصادف ذات الأحباب الذين مضوا أو الذين سيلحقون بهم.

• • • •

(٢)

انتهى الاجتماع؛ شيعت المدرسة التي ضمت بين صفوفها وساحاتها بعضًا من سني العمر، مع إحساس ثقيل داهمني وكأنه يصيح بي "هذه المرة الأخيرة التي تراها فيها".

كنت مع مجموعة من الزملاء، أخذ كل منا مسارًا له، نظرت بساعتي وهمست بفرح مفاجئ: "هناك متسع من الوقت، كان الاجتماع قصيرًا، فليكن المشي وسيلتي للوصول إلى المدرسة، عبر طرقات استرجع من خلالها وبها بعضًا من ذكريات الأمس البعيد".

بدأت بشارع الكفاح، ابتسمت في سري، شارع غازي، هكذا كنا نسميه، هو العقل، عالم الإنسان الفسيح ومخزن ذكرياته لا ينسى شيئًا، وصلت محلة الفضل وانحرفت من خلال سوقها إلى شارع الشيخ عمر، بعد أن ألقيت نظرة دامعة على مدرسة الفضل، رنت في أذني أصوات السيارات والباعة والعربات وضجيج الصبية، احتضنت نظراتي كل العوالم والأشياء، شملت كل هذه الحيوات المختلفة.

طفت علي سحابة حملتني إلى أيام كنت خلالها لا أعي من الدنيا إلا جانبها البهيج، وأحلم بخيالات تعبر بي أجواء الواقع إلى مدن الأحلام، مررت في الطريق بساحات وشوارع وأماكن حلت محل الطرق والأزقة التي سكنا فيها، ثملت، بدأتاستنطق الصور التي أرى، وأعتصر الخيال كي أرحل بعيدًا، العجيب أني لم أشعر تعبًا أو إنهاكًا برغم المسافة التي قطعتها، كنت مفتونًا، دخنت لفافاتي بلذة ونشوة، التمعت في الذهن وألحت عليه بعض الأغاني التي كنا نرددها بشغف وحب، لا أدري لماذا انسابت ألحانها مع الخيال، "أمانة أيها القمر المطل"، "يا شراعًا"، وأغنيتي التي أعشقها "كم بعثنا مع النسيم سلامًا"..

• • • •

(٣)

أشرفت على الطريق الذي يفضي إلى مدرستي في منطقة "باب الشيخ" أحسست بالنهاية فجأة تداهمني، تجمع التعب كله في قدمي وسرى في جسدي، شعرت بوجهي يستطيل ألمًا وحسرة، هزني منظر البناية التي التهمت جزءًا كبيرًا من العمر ومازالت، منحنا الذين فيها والذين قبلهم دم العمر، أعطينا زهو السنوات، صرنا سلالمًا، عبروا ومازالوا يعبرون عليها.

• • • •

(٤)

قال لي أحد الزملاء وأنا أجلس على الكرسي تعبًا بعد دخولي الإدارة:

– تلفنوا لك أكثر من مرة، يطلبونك بإلحاح في البيت.

ارتجفت قليلاً، طحنني ألم ساحق، شعور خبيث داخلني أن شيئًا ما قد حدث، خفت من استعمال الهاتف، لم أشأ أن أبادر إلى استعماله، أقنعت نفسي أنهم سيهاتفونني عما قليل، لم انتظر

طويلاً إذ رن صوت الهاتف، رفعت السماعة بحذر وخوف، سمعت صوت زوجتي المرتعش ألمًا وخوفًا:

- أبو سامي..

بنفس الإحساس أجبتها:

- نعم.. أم سامي.

- أين كنت؟

قطع صوتها نحيب مخيف، أحسست دموعها عن بُعد تحرقتني، تفجر صوتها رهيبًا:

- أخبرونا أن سامي قد أصيب، وهو يرقد الآن في مستشفى...

سقطت سماعة الهاتف من يدي، مازال صوتها يملأ أذني ويدوي في خيالي، لاحظ الزملاء الحالة، أشرتُ بيدي أن لا شيء، أخذتني إغفاءة قصيرة، رحت في حلم بحجم الخيال، استرجعت الهدوء الذي لفني وأنا في طريقي إلى المدرسة، ملأتني مشاعر شتى، سمعتُ أصواتًا عديدة، اختلطت في الخيال كسحب بيضاء متناثرة في أديم مشرق، ثم جاءني صوت أحسست به بعيدًا.. بعيدًا، لكنه برز من بين ضجيج روحي قريبًا وحبيبًا إلى النفس، "كم بعثنا مع النسيم سلامًا".

٩ - ١٩٨٦

بقايا رؤى من حلم مجنون

(١)

أصيل يوم من أيام آذار المفعمة بأمواج الضوء الهابط من مكامن النور الأزلية، كل شيء يسفر عن وجه ناصع وأسرار تتدفق بلا نهاية، وهناك في المدى المتسع تستقر ألوان قوس قزح على صفحة سماء صافية الزرقة، لتحيلها لوحة من نهارات ملونة، تبدو كأنها حقول من الزهور، تمتد إلى مسافات خيالية، تسابق الخيال نحو تخومه الأزلية، وشارع فلسطين مازال كما هو منذ عهد الدراسة حتى اليوم، شارع الذكريات البريئة والرسائل الملونة والعواطف المشبوبة، إنه دنيا تضج بمشاعر شتى، ترى ما الذي بقي منها؟ كل الأشياء الرائعة مضت في سبيلها، لتخلف بعدها ذلك الأسى الغريب الذي لا يبارح النفس وتلك اللوعة التي ما برحت تسكن خلايا العقل، كأنها مرض عضال!

يا له من حلم مضمخ بالآهات، مازال يشعل حرائق الشوق في شرايينك، أنت يا قمري الملغز بالأسرار، مازلت تضرب بجنونك جدران العقل، وتمزق شغاف الروح، ترى هل يقدر لي أن أراك ثانية لأسمع همساتك المفعمة بشوقك الأزلي؟.

وتدور العينان كما تدور عجلات سيارتك وهاجس كمس الجنون يهتف في سمعك؛ ستراها، لابد أن تراها، في لحظة ما من يوم ما، ها أنت ترسل بصرك إلى كل الأنحاء تبحث عن وجه لا يشبه الوجوه، فجأة يهتف مأخوذًا:

- هي.. هي.. إنها لحظة نشور تبعث فيها روحي من جديد! مازن يا صديقي، دقائق ثم أعود إليك ثانية..

بجانب الرصيف أوقف سيارته، نزل مسرعًا، سد فراغًا كانت تشغله مع ابنها وخادمتها، وقفت.. حدقت.. ثم تجهم الوجه الجميل وأربد، عبرت سماته مشاعر سريعة، لحظات وانفرجت الشفتان عن ابتسامة تقافز الربيع كدوائر نور من كيانها المبهر، همست من بين رنين ضحكة ساحرة، قالت بلكنتها المحببة:

- أوه.. معتز! كيف الحال؟

أنفاسه تتسارع، يرد بارتباك واضح:

- أنتِ.. أنتِ كيف حالك؟

يلتفت إلى الطفل الذي تعلق بها، ينحني ليقبله ثم يسلم على الخادمة، أكمل بصوت تخللته رنة ألم دفينة:

- لا أملك من وقتي إلا ما تجود به علي أيام الإجازات!

رمقته بنظرة متفحصة، أحست بما يمور في دواخله، قالت بذات اللكنة:

- أنا سعيدة برؤيتك، جميل جدًا إنني أراك الآن، فأنا مسافرة خلال اليومين القادمين، سألحق بزوجي إلى مكان آخر.

تساءل باهتمام:

- ألا أعرفه؟

غرست عينيها في عينيه، ساد صمت قصير، داعبته قائلة:

- صرتَ بدينًا بعض الشيء.. هل تزوجت؟ (ضحكت وهي تكمل) الآن يا عزيزي اسمح لي أن أودعك..

رفعت يدها ثم حركت أصابعها، انسحبت بهدوء ومضت كطيف غامض مسحور، ظل واقفًا يرسل بصره التائه وراءها حتى غابت عنه تمامًا، رجع مهزومًا، فتح باب سيارته، قال وهو يجلس وراء المقود:

- أسف دكتور مازن، يبدو إنني تأخرت عليك.

أجابه مازن بهدوئه المعروف عنه:

- بلا أسف.. نحن في جولة مفتوحة، ولكن ما الأمر؟

ثم بعد فترة صمت أكمل سؤاله:

- من الفاتنة التي كنت تكلمها؟

ملأ فضاء السيارة دخان سيجارته الذي بدا وكأنه موجات متلاحقة، قال وهو يحدق في الطريق بلا وعي:

- مازن يا صديقي.. لا شيء الآن سوى قبض الريح، في أخر لقاء لنا قالت: "أنت الذي بدأت".

سأل مازن باهتمام:

- منذ متى عرفتها؟

- منذ سنة تقريبًا.. ليتها تعرف حقيقة الأمر، ليتها ولكن هذا مستحيل.. مستحيل.

خيم صمت ثقيل عليهما، السيارة تدور كوحش جريح بين منعطفات الطرق، مساحات الصمت تتسع، حاول أن يقول شيئًا لكن مازن سبقه:

- بعد غد سأغادر إلى وحدتي، اقترح عليك جلسة ذكريات في مكان هادئ، ستخفف بعدها كل همومك وسترمي برمادها في قعر الليل، وستكون ليلة الاعتراف والشجون، ها هو المكان يدعونا إليه وسيحتضن دجلة كل أحاديثنا كما احتضن من قبل أسرار الدهور الطويلة.

• • • •

(٢)

همس بعد أن أفرغ قدح البيرة في جوفه مرة واحدة:

– ها أنا أعود مرة أخرى إلى جحيمها وجنونها وذكرياتها، إنه الهوس بعينه، لم يفارقني لحظة، لقد عذبتني رؤاها طويلاً ودفعت بي إلى حافة الجنون، مازن يا صديقي حتى وأنا بين السماء والأرض وفي المهمات الخطرة حينما كان الموت يفتح ذراعيه مرحبًا، كانت عيناها البنفسجيتان تهتفان بي كأصوات تأتيني من خلف تخوم الغيب.. "كن حذرًا وعد لي سالمًا، فلن يكون لحياتي معنى بعدك أبدًا".

تهدج صوته فجأة وهو يكمل:

– اليوم أودعها حزينًا محبطًا، أشعر أن الدنيا كلها بلا جدوى، وياله من وداع بسيط، عادي، على رصيف شارع تعب إسفلته من ضرب أقدامنا عليه، مازن هل أنت معي؟

أجاب مازن بهمس:

– طبعًا معك، أكمل يا عزيزي.. أكمل..

– ست سنوات أمضيتها متنقلاً بين مدن الأحلام، لندن.. باريس.. براغ.. موسكو.. كييف.. روما.. مدن وأسماء نسائها مازالت تلتمع في الذاكرة، تانيا.. مارسيل.. سوزان.. ريتا.. كل شيء هناك يتحول إلى حلم، كان الطيران هوايتي وحياتي منذ أيام الطفولة وحتى اليوم، ثم تحول ذلك الحب إلى وظيفة وحرفة.

لقد عشت حياتي مترفًا مع والدتي حتى اليوم، عوضتني عن رحيل والدي المبكر، ضحت بكل سنوات شبابها من أجلي، تزوجتُ مرغمًا كي أرضي رغبتها، لا أستطيع أن أرد لها طلبًا حتى لو كان على حساب حياتي نفسها، مازلتُ أشعر أنني ذلك الولد المدلل المنطلق في حياته، كل شيء جميل أمامي، كل شيء في متناول يدي، كنت أعتقد أنها السعادة بعينها، بل أليست هذه هي السعادة؟ ثم وجدتني بعد أن عرفتها أتغير جذريًا، بل أولد من جديد، ثم..

احتسى قدحًا آخر، قال وخيوط تعب تخالط صوته:

- هذه المرأة عصفت بكل حياتي وذكرياتي، أسلمتني إلى جنون حقيقي..

قاطعه مازن متسائلاً:

- بالمناسبة.. ما اسمها؟

ارتفع صوت ضحكة معتز، بدت كنغمة نشاز في إطار ذلك الجو المضمخ بالأسى والضاج بالآلام، أجاب:

- صدقني مازن لو قلت لك إنني لا أعرف اسمًا محددًا لها، هناك مجموعة أسماء، كنت أدعوها مرة فينوس أو أفروديت ومرة هيلين ومرة تحب أن أدعوها بأسماء مثل رباب أو رحاب.. ثم استقر الحال على اسم عشتار!

ضحك مازن وقال ممازحًا:

- والله يا معتز إنها أكثر جنونًا منك، علاقة بينك وبين امرأة رائعة كالتي رأيتها وأنت لا تعرف اسمًا لها، هل يصدق أحد ذلك؟!

- تلك هي الحقيقة يا صديقى..

كانت جلستهما في شرفة من الطابق التاسع لفندق شيراتون، بدت بغداد من ذلك المكان كعالم خرافي، عالم فسيح كثير الأطراف، فجأة ارتج المكان بعنف ثم أعقب ذلك صوت انفجار هائل مفزع مصحوبًا بأصوات صفارات الإنذار.

أطبق وجوم واضح على الصديقين، تحول كل شيء في لحظات إلى مشاعر غريبة تتحرك في أجواء القلق والخوف والانتظار، تسارعت حركة بعض الناس نازلين أو صاعدين أو أولئك الذين استمروا في الأجواء التي اختاروها، بدأ الهدوء يعود إلى المكان، أطلق مازن ضحكة بدد من خلالها أجزاء من تلك الأجواء القاتمة، قال معتدًا برأيه:

- إنها لعبة الصواريخ، تُرى أين سقط وكم عدد الضحايا؟ لقد دخلنا السنة السابعة ودولاب الحرب مازال يدور.

أكمل بعد أن أفرغ كأسه في جوفه:

- دعنا الآن من سيرة الحرب، فنحن نسبح في بحورها الرهيبة منذ سنوات، تبدو الآن كما لو كانت دهورًا بلا بداية أو نهاية، أكمل يا عزيزي قصتك واعلم أن كل الأشياء تمضي نحو نهايتها المحتومة..

بصوت عميق النبرات أكمل معتز:

- مازن.. إن الحرب مستمرة ويبدو أننا نوغل في ليلها الطويل..

كمن يتحدث إلى نفسه تناثرت كلمات مازن ثانية:

- في لحظة من لحظات هذا الزمن الرديء ستضع الحرب أوزارها كما يقولون، دعك من كل هذا ودعنا نتجول في أرجاء عالمك السحري وأحداثه التي أتوقع أن تكون بغرابة حياتنا.

بصوت خجل أجاب معتز:

- أخشى أن تسخر مني!

قال مازن مستنكرًا:

- أيصح ما تقوله يا معتز! إن تاريخًا طويلاً من صداقتنا النقية كنقاء الماس تمنع مثل هذا الذي تسميه سخرية، أيسخر الإنسان من أحلى ذكرياته وتجاربه؟ هناك ثوابت في حياتنا وحياة الناس كلهم، ثوابت لا فرار منها؛ مثل الولادة.. الموت.. الحب.. الفراق، كل حدث منها هو قدر بحد ذاته وهو قدر لا فكاك منه، كيف يسخر الإنسان من نفسه ومشاعره، بل وأروع أيامه...

ستجد بعد أن تنتهي من سرد أحداث قصتك هذه أنك تخففت كثيرًا من ثقل أزيح عن كاهلك، هيا يا صديقي فرحم الليل يتسع لكل الولادات! .

• • • •

(٣)

تدفق صوت معتز بنبراته الحزينة موشيًا لحظات السكون التي أحاطت بهما بشيء من الأسى، كان ينز من بين كلماته التي تدفقت بعفوية محببة:

- كنتُ عائدًا من القاعدة في طريقي إلى البيت بعد أن نفَّذ سربنا طلعات عديدة، نثر فيها وخلالها زهوره الحمر في مواقع شتى، كنت أقود سيارتي بمنتهى السرعة حينما شعرت أنني أقود حمارًا بطيء الحركة، كان الوقت منتصف النهار أو بعده بقليل، دخلت شارع فلسطين، تجاوزت حي زيونة، واجهني نصب الشهيد بشطريه الغامضين وتلك المهابة التي تملأ المكان من حوله حضورًا، يملأ الروح بمشاعر من الأسى تنداح إلى أعماق النفس لتستقر هناك كذكرى مؤلمة، عند ساحة بيروت خففت سرعة السيارة ثم استدرت نحو الجهة الأخرى، دخلت شارعًا خدميًا يحاذي مشاتل الزهور والنباتات التي كانت تتوهج وتتراقص تحت ذلك الفيض الرائع من أشعة شمس آذار الرحبة، تذكرت حديقة البيت، ابتسمت في سري ثم لاحت لي مكتبتي العتيدة، كل من المكتبة والحديقة تشكو الإهمال، قلت في نفسي: "غدًا سأطوف في مكتبات بغداد لأقتني الجديد من الإصدارات، أما الحديقة فها أنا أحاول أن أختار لها ما يليق بحضورها الكريم".

مازلت أتحرك على مهل وأنا أنقل البصر بين مساحات الخضرة المزدهرة والزهور اليانعة، مازن يا عزيزي في لحظة واحدة هي نفس اللحظة التي تفصل الحياة عن الموت والليل عن النهار والشقاء عن السعادة، في تلك اللحظة وقع بصري مذهولاً على وجه امرأة كانت تجلس خلف مقود سيارة فخمة، تضع على عينيها نظارة شمسية سوداء، ها هو العالم من حولي يرتج، لقد زلزل كياني بعنف، تجمعت الفصول في فصل واحد، صار العمر لحظة انبعاث جديدة، أسفرت الحياة عن وجهها الرائع، وجه لا يمكن وصفه ولو بحثت في كل القواميس أو جمعت كل الكلمات التي تصف الجمال أو الكمال أو النقاء أو الحضور لما وجدت شيئًا يناسب ذلك الوجه.

كنت قد تجاوزت سيارتها بمسافة أمتار قليلة، لكنني توقفت ثم رجعت ثانية لأتوقف بجوار سيارتها، بلا تدبير ولا مقدمات وكأنني أصبت بجنون سريع، رفعت يدي مسلمًا، خاطبتها بالإنجليزية وقد ظننت أنها امرأة أجنبية: "هاللو سيدتي"، التفتت ناحيتي بلا اهتمام، خلعت نظارتها، رأيت عينيها تسيلان عذوبة ورقة، عينين لم أرَ مثيلاً لهما من قبل، تجاهلتني تمامًا وعادت تنظر ناحية المشاتل بلا اكتراث، ركبني جنون سري في شراييني، وجهت كلماتي إليها: "من فضلك، إنني أسلم عليكِ فلما لا تردين التحية؟!".
ضحك مازن ضحكة مكتومة إلا أن معتز استمر:

- واجهتني بهدوء غريب وقالت بلهجة عربية كالتي ينطق بها الأجانب: "من أنت، ماذا تريد؟"، ابتسمت، كنت لا أصدق أنها تبادلني الحديث، رفعت يدي ملوحًا لها، لم ترد على تحيتي والتفتت إلى الجهة الأخرى، قلت لابد إنها تنتظر أحد، كانت سيارتها من الفخامة بحيث تبدو كأنها جوهرة كبيرة، سرت جرثومة الجنون في عروقي فسلبت مني العقل، خاطبتها بالإنجليزية: "أستطيع التحدث معك بأكثر من لغة".

رفعت يدها مقاطعة ثم رأيت شابة هندية أو باكستانية مع طفل جميل وأنيق يدخلان السيارة ثم مضت مسرعة، أخرجت يدها كي تثبت وضع المرآة الجانبية فقلت أهمس لنفسي وأنا أنفث دخان سيجارتي: "إذن فهي تراقبني"، هتفت من بين ضجيج مشاعري وأمواج الجنون التي أخذتني بعيدًا: "اتبعها أيها الطيار الجسور فهي هدف يستحق التضحية"، ثمة سيارات كانت تمرق مسرعة فتشغل المسافة التي بين سيارتي وسيارتها، آه.. إنها تنعطف الآن إلى شارع فرعي في حي المهندسين، تخرج منه إلى شارع أعرض، رأيت سيارتها تنطلق كصاروخ، هكذا إذن.. أعلم أنكِ تراقبينني، أراكِ من هنا تراقبين سيارتي خلال مرآة السيارة الموضوعة أمامك، سترين ما تفعله هذه الدابة التكنولوجية، إنها سريعة كالقذيفة.

حافظت على المسافة التي تفصلني عنها، عادت ثانية إلى الشارع العام، مضت مسرعة كالخيال ثم وقبل التقاطع المروري دخلت زقاقًا، دخلته وراءها، هذا الزقاق يبدو أنه يرقد في حلم جميل، أدهشتني بيوته ذات الحدائق الواسعة والأشجار السامقة، خففت السرعة وتقدمت ببطء، رأيت سيارتها تدلف إلى بيت بدا لعيني كأنه الجنة، توقفت لحظات وأشعلت سيجارة، مضيت أتقدم على مهل وأنا ألعنها في سري، تجاوزت البيت بمسافة أمتار ليست طويلة، كنت ما أزال أحدق في المرآة؛ رأيت سيارتها وياللعجب خلف سيارتي ثم تجاوزتني مسرعة، هتفت مأخوذًا: "سألحقك حتى ولو إلى أعماق الجحيم".

في الشارع العريض المؤدي إلى بناية الجامعة المستنصرية توقفت فجأة، فأوقفت سيارتي على مبعدة أمتار من سيارتها، نزلت، أغلقت باب سيارتي ومضيت نحوها، وقفت أمامها، لم تفتح باب سيارتها ولم تنزل منها، خلعت نظارتها ثم رفعت وجهها، تجولت عيناها على مهل بي، أحسست أنني أتسامى إلى أجواء أو عوالم خيالية بل خلف تخوم الخيال، بهرتني ملامح وجهها الباهر الجمال، أما عيناها البنفسجيتان فهما عالمان ينضحان سحرًا وفتنة وغموضًا، تساءلت وأنا أطوف على سحابة مجنونة:

– تُرى من أنتِ يا سيدتي، من أين جئت، كيف التقيتك ولماذا في هذا الوقت بالذات؟

لا أدري كيف خرجت من فمي تلك الكلمات المترددة الخائفة القلقة وتابعت:

- أود أن أقول لكِ كيف الصحة؟.

ابتسمت.. أحست بحرجي، في تلك اللحظات المفعمة بالسعادة والأمل أيقنت أن الخلود صار واقفًا وأن غيوم الأسى التي استوطنت روحي منذ فترة ليست قصيرة قد غادرتها دون رجعة، كنت مازلت ذاهلاً، وقد شعرت هي بذلك حتمًا، فسألت بلهجتها المحببة:

- ماذا تريد؟

سيدتي كيف سأجيب على سؤالك هذا، ماذا أريد؟ بعد أن رأيتك لا أريد شيئًا، يكفيني هذا الزمن القصير الذي أمضيه معك، فتحت عينيها مستغربة من صمتي وتساءلت ثانية:

- ها.. لم تقل لي ماذا تريد ولماذا تلاحقني؟.

هذه المرة عليك أن تتماسك، لا تنسَ إنك بملابسك الرسمية، ماذا ستقول عنك؟! طيار ويخشى مواجهتي، أجبتها وأنا أكثر هدوءًا من قبل لحظات مضت:

- لا أرجو أكثر من اللقاء، لا أريد سوى رؤيتك، هل تسمحين بذلك؟

قلت وأنا أشعر أن روحي قد نزفت كل طاقتها، قالت بالإنجليزية:

- بأي حق تريد اللقاء؟ هل هذا مسموح به في مجتمعك؟.

ها أنا أقف أمامها كالتمثال، لقد أسقط في يدي، ماذا أقول وكيف أرد على سؤالها، لا أدري، إنني لا أعرف بماذا أجيبها الآن؟!. أجبتها بعد فترة صمت شعرت بها استطالت كي تصبح دهورًا، وبلغة إنجليزية مقتدرة قلت:

– سيدتي.. إن شيئًا ما زلزل كياني، غيرني، أعاد تكويني، كنت أبحث عنك في حدائق الزهور، في عيون النساء، بين أروقة الخيال، وها أنتِ الآن أمامي حقيقة نابضة، أخشى أن أكون مازلت أحلم أو أن موجة جنون تأخذني لترمي بي بعيدًا.

تساءلت بجد واهتمام:

– هل يمكن أن يكون كل هذا الذي قلته واقعًا، إنني مازلت لا أعرفك، تذكر هذا من فضلك، أليس كذلك؟!.

– إنني أتهدم، من حقك ألا تصدقي شيئًا مما أقول، لكن كل الذي قلته هو منتهى الصدق، إنني أبحث عنك منذ زمن بعيد، لم أجدك في عواصم الدنيا التي زرتها، أنتِ خيال حملته في أعماقي وكنت كالنحات أضيف بعض اللمسات له في كل يوم حتى أصبح بهذا الكمال.

أجابت وسمات وجهها تتوهج بمعانٍ غامضة:

– أأنت شاعر أو أديب أم عسكري؟!

بسرعة أجبتها:

– كلاهما مرغوب، فالعسكري ينبغي أن يكون أديبًا أو شاعرًا أو فنانًا حتى يخفف من الضغوط التي تحيط به.

ران صمت عميق، تلفعنا بسكونه.. انفصلنا عن الواقع الذي يحيط بنا، لم أعد أسمع شيئًا سوى نبض قلبي وكأنه يريد أن يغادر جسدي، ركزت نظرها على أصابع يديها التي تمسك بمقود السيارة، يبدو أنها غادرت المكان والزمان، لم أفه بكلمة واحدة أو همسة، كنت أتشرب صورتها وأختزن سمات وجهها، أتأملها من كل الجهات أوزع عليها بصري كأنها لوحة باذخة الجمال والفتنة، تمنيت أن يستمر الموقف على هذه الصورة، تُرى هل يكفيني عمر أو أكثر من عمر كي أستطيع أن أتعرف على جوانب هذا البهاء الآسر، كما لو أخذتني سنة من النوم أو الذهول، سمعت صوتها المنغم يخاطبني بلغة إنجليزية طلقة وبوجه جاد:

– غدًا.. هنا في هذا المكان سنلتقي..

صمتت ثانية، ملأتني هواجس غريبة، تدفقت تداعيات شتى في أعماقي، إلا أنها عادت لتكمل وكأنها كانت تتخذ قرارًا:

– الساعة الثامنة مساء سنلتقي، ستأتي بملابس غير هذه التي ترتديها.

ابتسمت، كدت أقول نعم يا سيدي كما...، تداركت الأمر، أجبتها ممتنًا بنفس اللغة التي تحدثت بها:

- كما تشائين سيدتي.. (ثم همست) غدًا مساءً الساعة الثامنة في هذا المكان، أكيد إنني سأحيا حتى مساء الغد، إنني أحلم.. أحلم سيدتي.. أيتها الإلهة التي تمدني بالحياة.

ابتسمت ثم غمغمت:

- لا تبالغ..

رفعت يدها فجأة مودعة ثم انطلقت بسيارتها مسرعة واختفت في لحظات كأنها خيال، مذهولاً وقفت انظر فيما حولي، أقلب البصر بين الوجوه التي تمر أمامي.. خاطبت نفسي: "لا، ليس حلمًا يا معتز، إنها الحقيقة بكل سطوعها"، تذكرت مقاطع من قصيدة مازالت الذاكرة تحتفظ بها:

في زمن الفوضى وعصر الرعب
أشعلت نار الحب
واأسفاه، ذهبت صيحاتنا سدى
اتبع مولاتي، حاملاً رأسي
إلى الخليفة في طبق
فتقطر السماء دمًا وأرجوان

- مازن يا صديقي الأثير، كم الساعة الآن؟

أجاب مازن بسرعة:

- دعنا فنحن الآن نستلقي خارج الزمان والمكان، ولكن مهلاً سأخبر النادل أن يجهز لنا العشاء.

- كما تشاء.. كما تشاء.

بعد الانتهاء من تناول طعامهما، سأل معتز مازن:

- قل لي.. ما رأيك بالسيد كلكامش؟

أجابه ضاحكًا:

- إنه معتوه مثلك يا عزيزي، هو يبحث دائمًا عن خلود لا وجود له، يذكرك بالتفرد والاستثناء، وأنت تبحث عن حب لا نظير له في زمن غادرنا فيه الحب إلى خيامه وصحاريه العتيدة، ما الذي ذكرك بكلكامش؟

- سألتها مرة وكنا في جلسة صفاء وهدوء، أمسك بأصابع يديها كأنني أمسك بأيامي: "عشتار.. ما السعادة في رأيك؟" بلهجة العارفة الحكيمة أجابتني: "ستجد الإجابة على سؤالك هذا فيما قالته امرأة الحانة لكلكامش..

أقم الأفراح في كل يوم من أيامك

ارقص والعب مساءً نهارًا

اجعل ثيابك نظيفة زاهية

اغسل رأسك واستحم في الماء

افرح الزوجة التي بين أحضانك

هذا هو نصيب البشرية

باهتمام سأل مازن:

- كيف اطلعت فاتنتك على الملحمة؟!

- أخبرتني أنها خريجة قسم الآثار، أدهشتني ثقافتها الواسعة، وأنها قارئة ممتازة لها بعض المحاولات الشعرية، لا تنسَ أنها زوجة رجل ثري ولابد لها أن تكون ذات حضور ومعرفة، سافرت كثيرًا وتجيد بعض اللغات.

- أهي...؟

- لعلها من عالم آخر.

• • • •

(٤)

أوقفت سيارتي في المكان الذي عينته للقاء، كانت الساعة تُشير إلى الثامنة إلا دقائق قليلة، تشاغلت بالنظر إلى عقاربها وهي تقترب رويدًا من موعد اللقاء، عن بُعد رأيت سيارتها تتهادى في خيلاء كقارب كليوباترا وهو يشق صفحة النيل كما قرأنا في التاريخ، ابطأت سيرها ثم توقفت، لوحت بيدها ثم همست: "هاللو"، أجبتها وأنا أرفع يدي: "أهلاً.. مساء الخير"، وأشارت إلى أن

أجلس إلى جانبها، أقفلت أبواب سيارتي، فتحت باب سيارتها وإلى جانبها جلست.

كنت في حالة غيبوبة أو كمن يستسلم لقدره، ها هو عطر الكون ينهمر عليك كمطر ناعم، ها هي مواسم الفرح تحيط بك وتهتف لك، ها أنت على أعتاب زمن البشارة، زمن يبدأ منذ الأزل ولا ينتهي إلا عند الأزل، والأجمل أنت الحياة بكل توقها وألقها وخلودها، التفت إليها كأني أفيق من حلم عميق، وجدتها صامتة، لا تنم سمات وجهها عن معنى واضح، كانت كملكة في كبريائها وغموضها الآسر، لأول مرة ألتقي امرأة وأحس بشجاعتي تغادرني، لم يحدث لي ذلك قط، منذ أن عرفت النساء، ومنذ سنوات الصبا الأول، أحسست باللحظات تتساقط مسرعة في أعماقي، تنفست بعمق، ملأت صدري بشذى العطر الذي انتشر في المكان أو الفضاء الضيق، تُرى ما هذه الأجراس التي تقرع جدران خيالي، من الذي يدقها أو يحركها، تساءلت، لمَ أنت خائف؟ ماذا.. هل تخشاها أيها الجسور؟!.

ثانية نظرت إليها، وجدتها تنظر باهتمام إلى طريقها هادئة.. صامتة.. رصينة، كما لو أنها عالمًا من الكبرياء والغموض والفتنة، انتبهت تمامًا وأنا أراها تستدير إلى شارع فرعي ثم تهدئ من سرعة سيارتها وهي تنعطف بمهارة لتدخل ممر البيت الطويل الذي تحيط به الأشجار من جانبيه، هتفت كمن ينجز عملاً مهمًا:

- ها هو بيتنا.. لقد وصلنا!

نزلت أولاً، ثم لحقت بها، تقدمتني إلى سلم صغير يؤدي إلى فسحة على شكل مثلث تمتلئ زواياه بنباتات ظلية موضوعة بتنسيق رائع، فتحت بابًا واسعًا يطل على صالة كبيرة باذخة الأثاث، جلست على أحد الكراسي الوثيرة وأنا أحدق مبهورًا بعدد من اللوحات الرائعة، بعد لحظات انسابت الموسيقى هادئة عميقة، إذن هي الحركة الأولى من سمفونية الفرح (التاسعة)، بأدب جم قالت:
- دقائق وسأعود ثانية..

مكثتُ وحيدًا، كنت بحاجة ماسة لهذا الزمن القصير الذي منحتني إياه فاتنتي! بدأت أكتشف هذا العالم الساحر الماثل أمامي، على الجدار المغلف بخشب الساج اللامع نثرت لوحات عديدة، لوحة كبيرة طالعتني بمجموعة من الوجوه الإفريقية، وجوه متسائلة شاخصة النظرات نحو آفاق غامضة، ثمة ألم يحيط بها ويغلف سماتها الداكنة، كانت واحدة من لوحات الفنان (روبنز)، هناك لوحة أخرى رائعة كتب على حاشيها باللغة الإنجليزية (لقاء آلهة الحب) لنفس الفنان، شعرت بأن شيئًا ما في اللوحتين يغلي كبركان على وشك الانفجار، تبسمت ثم تمتمت: "الجنون فنون! أو الفنون جنون!".

كانت الموسيقى ما تزال تنساب إلى زوايا روحي المتعبة وتنشر فيها خيوطًا من الهدوء والراحة، في هذه اللحظات المفعمة بشتى

الأحاسيس والأخيلة فتح باب الصالة، وأطلت منه كما القمر عندما يظهر لامعًا ورائعًا من بين حجب الغيوم الكثيفة، امرأة هي والضياء صنوان متلازمان، امرأة تهمس للكون فيبدأ الغناء ويموج بالفرح، الله.. الله يا مازن، كأن الدنيا خلت من ألوان البؤس والقهر والشقاء، كأن الدنيا غادرت أحزانها ولم يعد هناك سوى هذا الألق، كأن المساء صار الزمان كله، ها هو بحر الموسيقى يمتد بين طيات حلمي الذي بدأ يشكل الحياة من جديد وينثر على شواطئها لآلئ الفرح القادم، كل شيء يتألق من حولي، أرى الدنيا بألوان جديدة، يا أنتِ يا أعذب الأحلام، كانت تمسك بإناء بلوري، وضعت فنجاني قهوة وجلست أمامي، قالت بلهجة مجاملة رقيقة:

- أهلاً بك في بيتنا أيها الصديق..

أجبت بسرعة:

- معتز.. معتز..

ناولتني فنجان قهوة فغمت أنفي رائحة البن الممتاز الممزوج بالهيل، بدأت أرتشف قهوتي على مهل، قدمت لي سيجارة من علبة أنيقة موضوعة على منضدة قريبة منها وقالت:

- خذ راحتك..

أجبت كأنني أبتهل إليها:

- إنني في غاية الراحة سيدتي، شكرًا لكِ.

ثم بعد فترة صمت قصيرة تساءلت:

- بأي اسم أستطيع أن أدعو سيدتي؟

أجابتني ببساطة وكأن الأمر لا يعنيها كثيرًا:

- خاطبني بأي اسم تحبه.. تُرى ما الاسم الذي يليق بي؟

- أيام دراستي في أكثر من دولة كنتُ مغرمًا بزيارة المتاحف، رأيت تماثيل كثيرة وصور عديدة لربات الجمال وبأسماء مختلفة رأيت ذلك في متاحف لندن وموسكو وبراغ وباريس، أقول لكِ سيدتي الرائعة إنني لم أجد اسمًا من تلك الأسماء يليق بك، أنتِ كل الأسماء وكل النساء.

ابتسمت مقاطعة:

- سمني رباب أو ليلى أو بثينة أو لبنى.. هذه أسماء شائعة.

- كان بودي أن أتشرف بمعرفة اسمك الحقيقي.

- ليكن اسم آلهة أجدادك القدامى عشتار اسمًا لي، أما أنت فسأدعوك باسم كلكامش!

من بين ضحكة عميقة قلت لها:

- لكنني أخبرتك باسمي الحقيقي..

سألت:

- هل الموسيقى مناسبة؟

- سمفونية نشيد الفرح.. مناسبة تمامًا تمامًا..

في تلك اللحظات انفلتت مشاعري من إسارها، طوقتني أمواج العطر الباذخ، سرى الجحيم في كل شراييني، لم يبقَ في الذاكرة سوى هذا الشعاع الآخاذ لذلك الوجه الأسطوري الجمال، وجدت نفسي ضائعًا معها، ضائعًا في تضاعيف ذلك العالم المجنون كأن عواصف الكون قد هبَّت على عالمنا الصغير الباذخ الروعة، هاجت البحار فارتفعت أمواجها، تقاذفت وجودنا بلا رحمة، أطبق علينا هوس اللحظات الخارقة، ضعنا في عوالم مجهولة بعيدة، رأيت قاربي يتهشم وأشرعته تتمزق، ثم من بين قمة الفرح الممزوج بأمواج الضياء؛ كدتُ أصرخ بصوت بدا لي خائفًا أول وهلة لكنه كبر ليتحول إلى صرخة مدوية اهتزت لها جوانب الروح، الآن أرى قاربي يرسو على شاطئ رحيب وقريب لي، كنتُ مذهولاً.. متعبًا، كانت تجلس قبالتي، قلت لها في تلك اللحظات الخارقة:

- سيدتي.. سأبقى مدينًا لك ما حييت على هذا اللقاء الرائع وسأعتبره سرًا من أسرار السعادة الغامرة لن أنساه أبدًا.

• • • •

(٥)

أطلق مازن ضحكة كبيرة، تناثرت الكلمات من بين شفتيه:

- لم أكن أعرف عنك هذا النوع المرعب من الجنون.

- مازن لاحظ.. أعتقد أننا لا تعرف كيف نعيش أو نحب في كثير من الأحيان، كانت جد واقعية وهي تتحدث عن أشياء أكيدة، لا شيء يبقى، لا شيء يستمر، علينا أن نتعايش مع هذه القاعدة، علاقة غريبة استمرت ما يقارب السنة، كنت أتصل بها عن طريق الهاتف، ثم أذهب لزيارتها، وعلى نفس إيقاع القاعدة التي لم أكن قد اقتنعت بها، كانت حياتي تمضي مع هذا الخيال الساحر إلى أبعد مدى لها، لم تتغير مشاعري نحوها ولم تذبل، كنت أبحر معها إلى جزر بعيدة نائية وأغرق في عالمها، أودع كل صغائر الدنيا وأتوجه لذلك الفجر الذي ملأ حياتي بألقه الساحر، حتى الليل لم أكن أتعامل معه أو أسهر ساعاته كالآخرين، كلا.. كنت أرى منه نجومه وأتجول في حقولها الزاهية، يرافقني طيفها الرائع طيلة اللحظات العارمة بالنجوى، وعلى أساس قاعدة لا شيء يبقى لا شيء يستمر استدعيت على عجل من قبل آمر القاعدة، خاطبني بصوت حاد:

- مقدم طيار معتز مطلوب للمساءلة، سيقوم بالمهمة الموكلة إليك طيار آخر!

أديت التحية وأجبت بوجوم:

- نعم سيدي..

كان صباحًا داكنًا، أيقنت أن ظنوني التي ساورتني كثيرًا كانت حقيقية، وأن هواجس شتى عكرت علي صفو أيامي، في الأعماق انبرى صوت يهتف هناك مفاجأة، حدث غير سار، بدا كل شيء من حولي شاحبًا وحزينًا، طُرحت علي أسئلة كثيرة أجبت عليها بكل أمانة وصدق، بعدها صدر الأمر لي: "عليك أن تنهي علاقتك بها فورًا"، وكرجل عسكري علي أن أنفذ الأمر الصارم بلا تردد ولا معارضة.

في الأيام التي تلت عشت وحشة روحية مرعبة، بعدت عن كل الأماكن التي أتردد عليها وتذكرني بها، هجرت أيامي الرائعة إلى زمن ميت، إلا أن الروح في جسدي بدت تتململ ثم تتمرد، ياللعذابات التي كابدتها في تلك الأيام، أحسست أنني على وشك مغادرة الحياة على وجه السرعة، ماذا تظن؟ أية مشاعر قاسية وباردة لازمتني كقدري؟.

في الأيام الأولى صرت كالمعتوه، لا أدري ماذا أفعل، لقد جاء فطامي سريعًا مفاجئًا، ولم أكن أبدًا مستعدًا له، بدأت أتغيب أو أفتش عن أعذار تراجعي وهروبي خلفها، إنني أصغر وأتضاءل، ملعون الكذب.. ملعون الجبن، ملعونة كل الصفات التي تحط من قدر الإنسان، ماذا تظن يا مازن بي؟ سأقول لها إنني محاصر، محاصر تمامًا، لكن شعورًا مجنونًا دفعني إليها، وقفت أمامها وأنا أردد داخلي: "إلهي، عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي"،

تخللتني نظراتها العميقة، نازعتني أفكار شتى، سأرمي كياني بين ذراعيها، كنت سأريها جراح روحي المفتوحة على كل الآفاق، خاطبتني بهدوء كما لو أنها قرأت كل الصفحات المخيفة:
– ألم أقل من قبل إنني امرأة خاصة جدًا، وإنني أستطيع معرفة أفكار الناس الذين أتعامل معهم، كنت على ثقة أن ذلك اليوم سيأتي، وأن قاعدة لا شيء يبقى.. لا شيء يستمر هي الخالدة، وأنها ستبقى ما بقيت الدنيا والناس.

اعترتني حالة ضعف مفاجئة، كدت أجثو على قدمي، أمسك بيديها، أتعبد في محرابها، خاطبتها متضرعًا:
– عشتار.. إنك لا تعلمين شيئًا عما...

قاطعتني:
– لا أريدك حزينًا هكذا، إنني أكره الضعف والحزن، أمقتهما، ربما في يوم من أيام هذا الزمن المتسارع سنلتقي ثانية، لكنه بالتأكيد ليس اللقاء الذي تعرفنا من خلاله ببعضنا، إن اللحظات السعيدة ليست دائمًا في متناولنا.

كانت تقف أمامي كتمثال للصلابة والكبرياء، وقع بصري على عينيها البنفسجيتين، كانتا تربدان بمشاعر غامضة، كان الانفعال واضحًا فيهما، ومع كل هذا فإنها كانت رابطة الجأش تمامًا.. في الطريق الذي سرت فيه راجعًا من حيث أتيت كان ثمة صوت حزين يردد كلمات أثيرة على نفسي:

صرخت في منازل مقفرة

دارت بها الرياح

أكلت برتقالة الشمس

وفي دمي توضأت، وصليت إلى الصحراء

عمود نور لاح لي، وواحة خضراء

• • • •

(٦)

في الأفق البعيد لاحت تباشير الفجر، ثمة خيوط ضوء حمراء تلتمع على صفحة السماء الداكنة، آه.. ها هو ذا فجر يوم جديد، إنها الحياة في تجددها الأزلي، إنها تومض وتضيء وتتقدم.

كان الصديقان صامتين وذاهلين، قال مازن بصوت خفيض مثقل بإحساس عميق:

– هيا معتز.. هيا، لقد شربنا الليل والحب والمشاعر المشتهاة حتى الثمالة، ها هي مدينتنا الحلم تغفو، والطريق مازالت طويلة!

قال معتز:

- سأوصلك إلى الأعظمية، ثم أكر راجعًا إلى حي تموز، احلم برقدة أطل من خلالها على تلك العوالم البعيدة، إنها تصير في لحظة حلمًا، حلمًا طويلاً بعيد المنال، أيتها المرأة المستحيلة سأفرح بك حد الانتشاء، وأحزن عليك حتى تجف الدموع، وهذا كل ما أستطيعه وأقدر عليه.

صيف ١٩٩٨

بعض عـزاء

تجشأ بصوت مسموع كأنه الزفير، فاجأته الحالة فلم يستطع السيطرة عليها أو احتوائها، أطلق شحنة من الهواء ممزوجة برائحة نفاذة لاذعة، ما لبثت أن انتشرت في ذلك الجو المحدود بفضل الهواء المتدفق من فتحة النافذة، سمع همهمة وراءه، التفت إلى السائق وقبل أن يعتذر إليه رآه يسدد إليه نظرة سريعة مستخففة به وساخرة منه، كأنه يقول له: "اعلم أنك ثمل يا هذا منذ اللحظة التي ركبت فيها السيارة وجلست بجانبي".
ملأ أعماقه خجل شديد، سيطر عليه وشل حركته فقرفص في كرسيه محدقًا بالطريق الممتد أمامه، يوزع بصره بين السيارات التي كانت تمرق من أمامه مسرعة، قال بصوت منخفض:
– عظيم.. كل شيء في هذا الكون يتحرك ويمضي مسرعًا نحو مستقره..

في هذه اللحظات بدا إسفلت الشارع لامعًا مغسولاً بماء المطر، كان يعكس أضواء السيارات كأنه مرآة هائلة، قطع عليه تداعياته صوت خشن يأمره بلهجة حادة:
– اغلق النافذة.. الهواء بارد.

أمسك بمقبض الزجاج ودفعه إلى الخلف ثم اتكأ ثانية على كرسيه، ماذا تقولون يا أولاد الآن عني؟ من المؤكد أنكم تنتظرون عودتي ومعي العشاء الذي وعدتكم به، وها أنا ذا في الطريق إليكم، بعد قليل ستقف السيارة أمام المطعم، وسأختار الدجاجة التي تليق بأفواهكم الحلوة، تلك أضواء المطعم تبدو واضحة من هنا، أما أنتِ أيتها الصابرة المتعبة؛ ما الذي يخطر ببالك الآن؟ أعلم ما تريدينه، إنني أحفظ كلماتك تمامًا: "ارحم نفسك يا رجل، فالعمر لا يتسع لكل هذا الذي تفعله، قلل ما استطعت من هذا الذي تشربه"، يبتسم في سره؛ لقد قلت لكِ مرارًا إن الأمر ليس ضارًا إلى الحد الذي تتصورينه، لقد كان الشراب صديقًا لا يفارقني كل ليلة، أكيد سيأتي يوم أفارقه على مضض، فإما هو أو الطعام، لن يكون هناك مجال للاختيار.

قبالة المطعم وقفت السيارة، قطع الشارع نحو الجهة الثانية مسرعًا وهو يزرر سترته، أحس بوخزات البرد تتوزع في جسده، فرك يديه وهو يخاطب عامل المطعم أن يهيئ له لفافة الطعام، كان عليه أن يقطع طريقًا طويلاً بعض الشيء إلى البيت، مد بصره إلى ساعته، كانت تتجاوز الحادية عشرة، هذه الرحلة الليلية طالما أتعبته، ثمة خيوط خوف بدأت تتسلل إلى أعماقه، خوف غامض لم يعهده من قبل، تراءى له الطريق بلا نهاية، كأنه يراه لأول مرة، لمَ هذا الخوف؟ هذا شعور غريب لم يألفه من قبل، ربما هو

الشراب، ولكن يبدو أن الأمر حقيقة، لقد بدأ الخوف يغرس دبابيسه في عروقي.

توغل في الشارع وهو يغمغم بكلمات أغنية قديمة، كان يحاول أن يسمع صوته بوضوح، رفع بصره نحو السماء، كانت قطع الغيوم الداكنة تتحرك في مسارات مختلفة، عاد يلتفت إلى الجهة الأخرى من الطريق، كان منظر الحقول التي تحاذي الشارع داكنة كئيبة، وهي أيضًا مهجع موحش يأوي الكلاب السائبة، في هذه اللحظات يبدو الشارع مظلمًا إلا من خيوط نور شاحبة وبعيدة، يزيد في قسوة الطريق خلوه من المارة في هذه الساعة من الليل، أصوات نباح كلاب تعكر صمت المكان وسكونه القلق، أسرع في سيره، قال يخاطب نفسه: "إنها حالة من الانفعال لم أعهدها من قبل! ما هذا؟ إنها مجموعة من الكلاب تتجمع لتقطع الطريق علي، ها هي تقترب نحوي رويدًا رويدًا كما لو أنها كانت بانتظاري، تُرى هل تشم رائحة الطعام؟".

في هذه اللحظات سمع صوت صفارة الحارس الليلي، بدت له بعيدة كأنها آتية من عالم آخر، يالها من لحظات غريبة، راحت السكرة وجاءت الفكرة، تذكر وهو في قمة خوفه وقلقه تلك الحادث التي وقعت له وهو في السابعة من عمره، عندما هاجمه أحد الكلاب وأنشب أنيابه في ساقه، تذكر كيف كان العلاج مؤلمًا مرهقًا، منذ ذلك التاريخ كره الكلاب، واليوم أيعقل أن يعبث به

الخوف وهو في خريف العمر؟!، لا خيار أمامه سوى أن يتقدم إلى الأمام، فطن إلى أنه مطوق، فالكلاب تحيط به، هز يده بتصميم.. "شمت رائحة الطعام، ولكن هيهات أن أفرط بعشاء الأولاد، إن أحبتي إياد وسهاد وميعاد بانتظاري الآن".

تقدم مسرعًا لكن أحد الكلاب قفز من جانبه كأنه يختبر شجاعته، في تلك اللحظة ارتطم به كلب آخر، تقهقر مأخوذًا إلى الجانب الآخر من الشارع، أطبقت يداه على لفافة الطعام، توقف قليلاً كي يسترد بعضًا من أنفاسه اللاهثة، غمر الشارع نور مصابيح سيارة آتية نحوه، استبشر خيرًا، إلا أنها ما لبثت أن اختفت عند دخولها أحد الأزقة، فاضت نفسه بالمرارة، هذه ليلة لا تنسى، لا أحد في هذا الوقت يمكن أن يمد لي يد المساعدة، أين الناس؟ أين حراس الليل؟ في أي مكان أنا من هذا العالم المخيف؟.

لا أحد سوى الكلاب، لم يعد يفصلني عن البيت إلا مسيرة دقائق قليلة، مسافة لم تعد طويلة، التقط حجرًا قريبًا منه ومضى ببطء يتقدم، لكن أحد الكلاب هاجمه وجهًا لوجه، تراجع بسرعة مذعورًا إلى الخلف وهو يسدد له الحجر بكل قوته، حاول أن يلتقط حجرًا آخر، إلا أن الكلب هاجمه بسرعة دون أن يترك له فرصة لذلك، شعر بألم يخزه في ساقه، صرخ بأعلى صوته، في هذا الوقت رمى كلب آخر بثقله عليه، فقد السيطرة على نفسه، إنه يتدهور بين الكلاب مذعورًا، ممزق اليد والساق، تدافعت عليه الكلاب، طرحته

أرضًا، مزقت ملابسه وأجزاء من جسده، أفلتت يداه لفافة الطعام مكرهًا، حاول الوقوف ثانية، تراءت له مجاميع الكلاب وهي تبتعد عنه ولفافة الطعام بين أنيابها، يحاول كل كلب أن يستأثر لنفسه بالطعام، سريعًا نشبت المعركة، كانت ضارية وقاسية، النباح يملأ الجو ضجيجًا، أرسل نظرة يائسة شملت المكان كله، خاطبها قائلاً: "تقاتلي.. تقاتلي، فربما كان في ذلك بعض عزاء لي".

أوائل آب ١٩٩٦

القــاع

شباط.. أيها الشهر الكريه المعتم الذي لم أعد أحبه ولا آبه له، لأنك تذكرني ببدء مأساتي..

ها أنا ذا أمضي الوقت وحيدًا غريبًا في جوف هذا الليل البهيم، مركونًا في مكان ما من هذا العالم الذي بات علي أن أفارقه غير آسف عليه، من غرفتي هذه؛ وهي مكان تفضَّل به علي صديق عمري، تبدو وكأنها مناسبة تمامًا لحالتي الخاصة هذه، لأنها تقع في الركن القصي من حديقة البيت الواسعة، كانت في الأصل مرآبًا لسيارته، وها هي الآن ملاذي الأخير الذي يضم كياني المضمحل فيه، كم الساعة الآن يا ترى؟ إنها الحادية عشرة، الليل يمضي قدمًا في طريقه الأزلي، وأنت ماذا بوسعك أن تفعل؟ هل تستطيع أن تشغل سويعاتك القادمة؟.

لا أريد أن أتوارى خلف ضعفي ومرضي، يجتاحني شعور بالشوق لكأس مترعة لا أبقي منها شيئًا! آه ليس بالإمكان.. لا أحب الأمثلة، إذن بما التعلل؟ لا كأس ولا نديم، ثمة أشياء عزيزة على النفس لم تفارقني وها هي معي، إنها بعض أوراقي التي تثبت هويتي، وألبوم كبير يضم صوري، بل يؤرخ لمراحل مهمة في حياتي، ومرآة أنيقة أحاول أن أتعرف فيها وجهي القديم، ومسدس

هو رفيقي الذي لم يفارقني في كل محطات حياتي البعيدة منها أو القريبة والحاضرة أيضًا.

سأبحث في طيات وتضاعيف الدقائق القادمة عن أشياء أتشاغل بها ومن خلالها، آه.. لكن حركتي المحدودة تمنعني من تحقيق ما أريد أن أفعله، تطالعني على منضدة قريبة بعض زجاجات الأدوية التي تناثرت بغير اهتمام على سطحها المستطيل، لقد كرهت النظر إليها منذ أيام طويلة، بعدما شعرت باليأس تمامًا من الشفاء، أو بعض الشفاء، أما ألبوم الصور فقد أهملته متعمدًا، إلا أنني أحس برغبة غريبة في تصفح أوراقه ورؤية ما فيه من حياة تكاد تنتهي!

يا للزمن اللعين الذي يسرق أجمل لحظات عمرنا، لكن هذه المرة سأتعامل معك أيها الظالم بطريقة تمكنني من مراقبتك، وأتمكن من التعامل معك بندية واعية، سأضع ساعتي أمام عيني كي لا تمضي بي إلى حافات مدياتك المخيفة، وحتى أشعر بإيقاع لحظاتك المتتابعة في نبض ما تبقى منك في شراييني، رباه أي مرض هذا؟ لم أسمع به من قبل، قال لي الطبيب إنه لا يصيب إلا واحدًا من كل مائة ألف شخص، واختارني القدر بلا تردد لأكون الضحية!

إنه مرض التهاب العصب المحيطي، تُرى أين يقع هذا العصب من تلافيف الدماغ البالغة التعقيد والعدد؟ وهل هو جرثومة أم فايروس؟ لا أدري.. لا أعرف.. لقد مضى وقت التساؤلات وعلي

أن أرى ما أنا فاعل، أقرب المرآة بأصابعي المرتعشة، يا للقسوة، أحسها وهي تموت رويدًا رويدًا كما ماتت قبلها أجزاء عديدة من جسدي، يطالعني الآن وجهي على أديم صفحتها اللامعة، وجه لا أعرفه لاح لي وكأنه على وشك الرحيل حيث النهاية التي لابد منها، إن حياة القاع الرهيبة هذه آن لها أن تنتهي وبأسرع من سير الزمن الذي يطاردني من خلال عقربي ساعتي هذه، يا للبرودة الشديدة التي تتخلل قدمي وتسري إلى أنحاء جسمي الآخر.

التفت إلى مجموعة ضخمة من التقارير الطبية، كانت موضوعة بالقرب من الأدوية، يشير الأطباء من خلالها أن لا أمل في شفاء قريب أو حتى جزء من شفاء، تُرى ما فائدة كل هذا؟ ما معناه، إنني ملقى هنا كخشبة قديمة نخرتها حشرة سوس قذرة! هذا منظر كريه يتكرر أمام ناظريك كأن قوة غريبة ورهيبة تفرضه عليك، يخيل إليك أن قاعًا رهيبة تفغر فاهها الواسعة لتبتلعك، ها هو الخوف كمرضك الغريب يسري في أعماق روحك المنهكة، لم يبق أمامك سوى النهاية، ستضع تفاصيلها بيديك المرتعشتين، سأعفيك من كل ما ألحقته بك وبعائلتك لأضع حدًا لآلامك التي أحسها كألم آخر يضاف إلى مرضي.

أمامي الآن البوم صوري، سحبته بصعوبة بالغة، سأتصفح أوراقه القديمة، أطل من خلالها على بعض من تاريخ حياتي الماضية،

وصورة أخرى لا أستطيع أن أتبين سماتها، فبصري لم يعد يساعدني، سأدخن سيجارة، هل أستطيع إشعالها؟ أحس بعض الراحة وأنا أنفث سحبًا من دخانها وأنتبه جيدًا خوفًا من أن تسقط على فراشي، فأصابعي الآن ترتعش بشدة، أقلب الصفحة الثانية، تطالعني صوري مع والدي، صور متنوعة في حديقة البيت وأمام الباب وسط أطفال المحلة. في الصفحتين التاليتين صور من أيام الدراسة، لا أذكر شيئًا عن الوجوه التي تحيط بي، صور أخرى لشاب بجسم هرقلي البناء وبطول فارع، رباه.. أيمضي كل شيء إلى عدم؟! صور أخرى في ساحة الكلية العسكرية بملابس التدريب، بعض الزملاء الذين معي لا تبارح صورهم ذاكرتي، أقربهم إلي صديق العمر الذي يستضيفني الآن في بيته.

يمتلئ فمي بضحكة كبيرة إلا أن قسوة الألم ضيعت حلاوتها، أحدق بصعوبة في سمات وجهها الحبيب بابتسامته الرائعة، كانت عالمي كله، أسافر معها إلى كل مدن الخيال التي لم تطأها أقدام بشر قبلنا، سبحنا في بحور الحياة المتجددة، واعتصرنا رحيق دقائقها السريعة، "أيها المجنون إنك تنحتني من جديد، تُعيد تشكيلي ثانية، من علمك أسرار الحب أيها المتوحش"، تضحك بعذوبة وسخاء، أجدني عالمًا متجددًا معها، أهبها لحظات العمر الذي ظننت يومًا أنه لن ينتهي، يا للسعادة، تمضي كما الحلم.

كم الساعة الآن يا ترى؟ الواحدة بعد منتصف الليل، حسنًا، سوف أمضي مع هذه الوجوه، ومع زمني هذا الذي يمضي بي سريعًا نحو نهايتي، علي أن أقف طويلاً بعض الشيء أمام هذه الصور التي تجمعني مع صديق عمري الذي لم يعد لي في هذه الدنيا سواه، ها أنا أجد نفسي ضيفًا ثقيلاً عليه وعلى بيته بعد أن رحل كل الأحبة، صور عديدة ونحن نجد السير في طرقات الحياة، ومعنا شبابنا الذي يصور لنا الدنيا بألوانها الزاهية فقط.

يطل علي الصديق بين الحين والآخر، يمازحني ويطلق نكاته كشلال متدفق، يتفقد أدويتي، بل إنه ينظف حجرتي بيديه، وأعلم أنني سأتوج هذه العلاقة الباهرة بإساءة بالغة له، ولكنها في ذات الوقت هديتي التي لا أملك أغلى منها لأقدمها إليه في الوقت المناسب، الليلة باردة، وريح تحمل رذاذ مطر، يدق زجاج نوافذ حجرتي بقسوة كأنه القدر، ثمة رعشات تأخذ جسدي بقسوة بالغة، اليوم هو الحادي عشر من شباط المثقل بالهموم والأهوال، تُرى ما الذي يحدث في هذا العالَم المجنون الآن؟ كم من الناس يمرضون ويموتون، وكم هم الذين على شاكلتي يعانون المرض والوحدة؟ هذه الورقة الأخيرة من ألبوم صوري، أحاول بكل ما أستطيع من جهد وعناء أن أرسم عليها صورة قلب مزقه قذف ناري قريب، فتطايرت دماؤه إلى كل الجهات.

الاختيــار

خاطبني بصوت يقطر ألمًا:

- لا فائدة.. ها أنتِ أخيرًا رأيتني وأنا أبكي، اعذريني فلستُ قادرًا على دفع أحزاني.

أجبته بعطف وقد جعلتني المفاجأة أكثر رقة:

- أنا التي أعتذر.. وما كنت آتية لولا برقية مستعجلة كنت بحاجة إلى رأيك فيها لغرض إرسالها، إنني..

رفع لي نظرًا مبللاً بالدموع، قال كأنه يحدث نفسه بصوت متعب لا رنين فيه سوى الحزن:

- تلك قصة حاولت نسيان أحداثها.. إلا أنها تهاجمني بين الحين والحين، يقولون إن الزمن كفيل بأمور كهذه..

ولكنه في هذه القضية استسلم هو الآخر، وما عادت أيامه تثير شيئًا غير الشجن، ناهيك عن الليل، فذاك له حديث وغصة.. ولكن أي حديث؟!

كان المكان خاليًا.. والحديقة واسعة، وأماسي الصيف تترك لزوجتها واضحة على كل شيء، حتى النفوس، راح يحدق في دخان سيجارته المتصاعدة بدون نظام، المنتشر إلى كل الجهات، دفعت مشاعر غامضة.. هذا الرجل تملكني.. لم أعد أستطيع

نسيان نشيجه وهو منكفئ على مكتبه، عندما تزاحمت كلماته المتراخية عبر سماعة الهاتف:

- أريد محادثتك.. وأرجو ألا أكون قد تعديت حدود الزمالة..

كانت المفاجأة أكبر مني، ومازالت كلماته تتساقط متعبة متراخية..

- لقد شجعني على هذا الطلب ما لمسته من اهتمامك بي.

أجبت وكأن حالته أصابتني، ونقلت إلي عدوى صوته المتراخي:

- إن كان ثمة ما يتطلب حضوري فإنني قادمة ومعي بعض الأوراق.. أرجو أن تطلع عليها.

أكذب على نفسي وعليه، وأنا أعلم ما يقصده تمامًا.. جاءتني كلماته وهي تكاد تسقط إعياء:

- لا.. ليس هنا.. هناك ما أود أن أقوله، وما ينبغي أن تسمعيه..

لم تكن علاقتي به قد توطدت بعد، على الرغم من كثرة ترددي على حجرته بسبب أمور العمل، إلا أن شيئًا ما جعلني أشعر أن هذا الرجل قد رأيته وأحببته، عشت معه دهرًا من الزمن.. أين.. ومتى.. لا أدري.

جلب انتباهي إحساسه العميق بالحزن والغربة، أجده غارقًا في معاناته، سارحًا حد التلاشي، ثم لا يلبث أن ينتبه فيعتذر ويداوي الموقف بابتسامة يرسمها على زاوية فمه، فتبدو هي الأخرى خجلة، ثم يمضي الحديث في شؤون العمل والإدارة، كان يبدو كمن نهض توًا من نوم عميق، قطع صوته تداعياتي، أسقطني في قرار عالمه.

- لا أدري لماذا وضعت ثقتي بين يديك.. إحساس هو أبلغ من كل كلام وتفسير.. كنت أعرف مدى اهتمامك بي..

تصاعدت الدماء إلى وجهي.. حولت نظري إلى جهة أخرى أتشاغل بما أرى ريثما يمر تأثير الكلمات، أكمل بعد توقف قصير، كان كمن يرى تأثير كلامه على الآخر:

- كنت أرى عينيك تبكيان بدموع هي نفس دموعي، ولطالما تملكني شعور أننا نبكي معًا، آه.. قد نختلف في الأسباب، لكننا نتفق بالنتيجة.. ثم اتخذت قراري..

رجل يزهو بكبريائه كأنه أثر باذخ من حضارة اندسرت يداعب مشاعري، يهبني التوهج.. يزيدني وضوحًا وثقة.. لكن..

- كنا في طريقنا إلى بغداد بعد أن أمضينا إجازة قصيرة عند أختها في محافظة البصرة..

الصمت عذاب.. لابد أنه تعذب كثيرًا قبل أن يتخذ قراره.. ويتكلم..

- زوجتي.. (ثم بصوت خفيض أكمل) رحمها الله إلى جانبي.. وفي حضنها طفلنا البكر ذو الأشهر العشرة، تناغيه بسعادة ويبتسم لها، كأنه ملاك، الطريق سالكة، والحياة تتدفأ بشمس تنشر خيوطها في كل الزوايا.. كنا كمن يسافر في سفينة فضائية ويمضي بها عبر تضاعيف الفضاء..

• • • •

- متى نصل إلى بيتنا يا علي؟

ضحكت لسؤالها ثم خاطبتها:

- الطفل ينام.. فأريحيه على يديك..

قالت مشاكسة:

- لم تجب عن سؤالي..

- كل الأرض بيتنا سعاد إن شئتِ.. فنحن الآن في بيتنا..

ردت بحبور وعيناها تلمعان برغبات قوية:

- أيها الماكر..

• • • •

يعود الصمت يدق أبواب القلق لتهب عبرها عواصف الدهشة والمفاجأة..

- هنا.. أقص عليك الحكاية لأتخفف من وزرها.. أريد من أبثه شكواي.. قتلني الصمت..

خرجت كلماته لاهثة من بين شفتيه، فأكمل كأنه يطارد الأفكار وتطارده.. يصارعها فتصرعه تارة ويتغلب عليها تارة أخرى.. كانت تعابير وجهه تواكب تدفق مشاعره..

- كنت أحبها.. لا بطريقة كل رجل لامرأته.. كلا.. كانت صديقتي وحبيبتي وزوجتي.. وكان فادي بيننا يلون الحياة بالزهو ويطرزها بالسعادة.. كنت أغرق في ألق عينيه الواسعتين الممتلئتين حياة..

توقفنا قليلاً عند حقل يمتد إلى مسافة طويلة بجانب الشارع، تجولنا قليلاً ثم ركبنا السيارة ثانية، وضاع الطريق تحت عجلاتها المهووسة..

تطاير دخان سيجارته وملأ جو المكان، رأيته كالحلم قبالتي، ثم كالمستحيل هذه المرة، طال صمته، نظرت إلى عينيه فهمست أعماقي: "أي مطر يهطل في عينيك.. وأية رياح تولول في داخلي.."، قلت كأنني فارقت حلمًا ممتعًا:

– ألا ترى وجودي معك إثارة لذكرياتك وأحزانك؟

أجابني مباشرة:

– أنتِ صورتها الثانية.. لقد مضت مع فادي إلى غير رجعة، ولكني وجدتها فيكِ.. ووجدتك فيها، لا أدري.. واعذريني فأنا لا أملك نفسي في بعض الأحيان..

هذه القضية إذن.. أنا الشبيهة، والرجل يعيش على الذكرى والخيال، ويقترب الخيال من صورتي ليصبح الاثنان هي.. وأعيش معه في الظل، أهتز مع اهتزاز ذكرياته، صورة شاحبة لماض لا يريد أن ينتهي، أو هكذا يشاء هو أو يريد.. ومع انهمار مشاعري في داخلي.. فإنني قد وجدت نفسي أيضًا..

– هناء.. لقد اخترت.. وأرجو أن ينال اختياري القبول، لقد أعدتِ لي الفرحة من جديد..

الصخب يهدر في الأعماق، وأعرف أن الليل بحر يغرقني بعذاباته.. لكن سكينة آتية تقول إن نهارًا آخر قادم.. من بين عذاباته سألني:

- هناء.. لم أسمع ردك بعد..

ها أنا أولد من جديد بين يديك الحزينتين.. ولابد لك أنت الاخر من ولادة جديدة، فالماضي ليس هو كل الحياة بالتأكيد.. قلت:

- دعنا نذهب.. أعتقد أنك تخففت كثيرًا...

رد باستغراب:

- هناء..

قاطعته:

- هيا.. وإلى أن يصبح الماضي جزءًا من الحياة وليس كلها.. عندها قد نلتقي..

قلت في نفسي ونحن في طريق العودة:

- هكذا تهجر السواقي اليابسة.. وهكذا يكون الاختيار!

٩ – ١١ – ١٩٨٦

تداعيات ساخنة

النهار لم ينتصف بعد؛ وجو تموز جحيم، خُيل إليه لحظتها أنه يقف وسط حريق تحيط به ألسنته من كل الجهات، كان على عجلة من أمره، طلبوه في المكتب وهو في يوم إجازته، وقف محاذيًا شارع القناة، أرعبه ضجيج الشارع الحافل بالمركبات الطويلة والسيارات المنطلقة كأنها القدر، مد بصره إلى الجهة اليسرى من الشارع، على مبعدة رأى سيارة أجرة، ملأه فرح كفرح الأطفال عندما يجدون ما يريدون، رفع يده لكن سائقها تخطاه، وهذه سيارة أخرى أشار لها لكنها مرقت كأنها الشبح.

أحس بخيبة مريرة، أخرج منديله مسح به وجهه ورقبته ثم نشره على رأسه، سيارة أجرة مرت كالسهم لم يستطع أن يرفع يده مشيرًا لها فمضت كسابقتيها، على مبعدة رأى سيارة بيضاء تتهادى في سيرها، ركز بصره عليها، لم يخب ظنه، اقتربت منه ثم توقفت، انحنى قليلاً، صوب نظره إلى داخل السيارة، لم يتبين وجه السائق لكنه لمح ابتسامة كأنها الأمل، ارتفع صوت سائقها مرحًا:

– تفضل..

فتح باب السيارة واستقر جالسًا بجانب السائق، أنعشه جو السيارة المكيف، على مهل تحركت السيارة، التفت السائق إليه وابتسامته لا تفارقه:

- الله بالخير أستاذ.

أجابه بأسف وهو يمسك منديله:

- الله بالخير.. اعذرني نسيت حتى السلام، الانتظار والحر فتكا بأعصابي، منذ فترة وأنا انتظر الرحمة، لكن سائقي التاكسيات لا ينظرون إلى جانب الطريق.

بمنتهى الذوق والود أجابه:

- أنا بالخدمة.

- جزيل الشكر لك، ولكن لم نتفق بعد على الأجرة.

ضحك الشاب ثم قال:

- لكني لا أعرف إلى أين ستصل؟، وعلى كل حال كل ما تجود به مقبول مع الشكر.

أجابه بأسف:

- آه فعلاً.. مدينة الشرطة من فضلك.

بنفس الصوت المرح أجابه:

- بسيطة.. كل الطرق تؤدي إلى الشرطة.

ران صمت قصير على جو السيارة، تداعى في خياله حديث: "مفاجأة أليس كذلك؟ هذا شاب لم أرَ سائقًا يشبهه، ذوق وأدب ولباقة في التعامل، لقد أنقذ الموقف تمامًا، آه لو لم أجد سيارة، كنت رجعت إلى البيت ثانية، على كل حال حصل خير".

سُرَّ بجو السيارة الذي أشاع في جسمه راحة افتقدها منذ أن خرج من بيته، التفت إليه مجاملاً:

- لقد أنقذتني فعلاً، شعرت قبل مجيئك إنني موشك على الذوبان، الجو لا يطاق، تموز هذا سوف يؤرخ لحرارته.

أجاب السائق وهو يحد بصره في الشارع الممتد أمامه:

- لا جديد في جو تموز، سوف يمضي هذا الشهر ويأتي غيره وتدور الأيام ببردها وحرها.

جميل.. إنه يتفلسف، سوف يقرأ لي قصيدة حول الفصول وأجواءها المختلفة، وجميل أيضًا أن يبدأ بالربيع، تنبه إلى أن الشاب مازال مستمرًا في كلامه:

- هناك الذي يدمي النفس ويملأ الأعماق بالسواد، هناك ما هو أفظع من الحر وأسوأ.

لابد أن يرد عليه بشيء، الطريق طويلة ولابد من حديث...

- أكيد، هناك الكثير مما لا يحتمل، هذه حياتنا ومهما كان لونها لابد أن نعيشها.

أطلق الشاب آهة ثم نفث دخان سيجارته بقوة:

- أشياء كثيرة يمكن قبولها أو احتمالها أو التكيف على الأقل بشكل ما معها إلا الإحساس بالعجز وبأن الإنسان في عزلة عما يحيطه.

ما هذا؟ هذه لغة مثقف حقيقي، أسلوبه ينم عن معاناة، فجأة تنبه إلى شيء، أخذته المفاجأة، غض بصره، أرسله بعيدًا من خلال زجاج النافذة، رأى الأشياء تتراجع إلى الوراء، أيمكن هذا؟ شاب بهذا الشكل والمستوى... قطع عليه الشاب تداعيات الموقف:

- حي الشرطة.. أين بالضبط؟

- بالقرب من النفق.

ثم وهو يحاول أن يمتحن الموقف أكمل قائلاً:

- لا أظنك سائقًا.. أكاد أقول إنني متأكد من ذلك.

بصوت خفيض أجابه:

- هو كذلك، لستُ سائقًا ولم تكن مهنتي، لكنها الآن هوايتي وتسليتي بعد...

اكفهر وجهه وتغيرت سحنته، أحس بالاحترام والإشفاق يملآن نفسه لهذا الإنسان، ارتفع ثانية صوته يكمل ما انقطع من حديث:

- بعد أن فقدت القدرة على الحركة.

تنبه إلى أنه بدأ يسرع في سيره، خفف سرعة السيارة وعادت ثانية تتهادى في سيرها..

- هذه السيارة أصبحت وسيلتي للاتصال بالحياة والناس، من خلالها ألتقيهم، أتعرف عليهم، أحاورهم، منهم من يمنح ثقته فنصبح بعد قليل كالأصدقاء، ومنهم من يصمت وينظر بريبة إلى ما حوله، لا تتعجب، لقد أمضيت سنتين لم أرَ منهما إلا وجوهًا مشفقة وعيونًا لا ترى، كرهت كل شيء من حولي، أنا إنسان يحب الحياة ويثق بها، قضيت السنة الأولى في المستشفى ومثلها مقعدًا في البيت.

قال كأنه يعزيه:

- مثلك قليل.. لقد توسمت فيك شيئًا لم أجده في غيرك من الناس وهم في كامل قواهم البدنية، لقد أحسست معك بالألفة منذ بداية حديثي معك، أنت عملة يعتز بها، إنسان تتواكب مع الحياة ومتغيراتها، مثلك هو الذي يعيش ويبني ويمنح، ثق إن سروري بك عظيم، لقد تنبهت إلى الحقيقة في لحظة، غيرك يمكن أن يظل قعيدًا في البيت أو ينتقل على كرسي من مكان إلى آخر، لكنك تصنع شيئًا رائعًا وتتواصل مع الحياة والناس، وهذه سمة الذين يصنعون الأمل ويضيفون إلى مسيرة البشر ما يدفعها إلى الأمام.

قال الشاب بتأثر:

– أعتز بما تقول، لقد وجدت فيك شخصًا تمنح للآخرين ما يشعرهم بالألفة معك، أرجو أن تقبل صداقتي.

بفرح واعتزاز رد عليه الرجل:

– هذا يسرني، الصداقات العظيمة تنمو في مواقف وتظل رائعة كالبناء الشامخ، قبل لحظة كنت أحدث نفسي هذا الشاب أحس بتآلف عجيب معه فكأني أعرفه منذ زمن.

في الشارع الذي يؤدي إلى ساحة النسور وبعد أن أشعل سيجارة أخرى قال بهدوء:

– قبل أعوام ثلاث تخرجت في كلية الهندسة، دعيت لخدمة العلم، صرت ضابطًا، ثم غيبتني ساحات الحرب ومواقفها المرعبة.

انخفض الصوت قليلاً وهو يكمل:

– في ليلة غيومها داكنة تنذر بعويل مستمر؛ طلب إلينا أن نبدأ بفتح طريق من خلال حقل كبير للألغام كي يستعمله بعض المقاتلين لصولاتهم الليلية، وقبيل انتشار خيوط الفجر الأول، وبسرعة البرق ارتفعت بعنف إلى الفضاء كأني كرة ضربها لاعب ماهر، ثم لم أعد أشعر بعدها بشيء.

توقفت السيارة عند إحدى الإشارات المرورية، أشعل سيجارة أخرى ثم أكمل:

– أفقت في المستشفى، تنبهت على أن أفضل ما بي قد انتهى، وأني فقدت ساقي اليسرى، أما الساق اليمنى فكانت في جبيرة لا

أستطيع تحريكها، وتمضي الأيام بي لأكمل سنة في المستشفى، خرجت منه لأمضي أخرى في البيت، صرت من المتقاعدين، لكني تقدمت بطلب إلى الجهات المسؤولة لمنحي السيارة، فكانت هذه التي تركبها معي الآن، في معارض السيارات أو عند البيع والشراء يسمونها سيارة المعوقين، هي فعلاً كذلك لأنها لا تكلف سائقها جهدًا يذكر كما ترى.

صمت، مسح جبهته بمنديل ورقي ثم عادت ابتسامته تشرق في وجهه، قال مازحًا:

- ألا تجدني محقًا في حبي للقيادة والسائقين على كثرة ما يرتكبون من أخطاء؟

تجاوزت السيارة السكة الحديد التي تقطع الشارع، التفت ثم قال وعيناه تطرفان بسرعة:

- أعتقد أننا وصلنا..

بإعجاب وحب أجاب الرجل:

- بقدر ما أنا ممتن لك فأنا معجب بك، وثق إنك والآخرين أمثالك من الرجال الحقيقيين تستطيعوا أن تقدموا شيئًا أكيدًا للناس والحياة، سوف أبقى أذكرك وأذكر بامتنان الصدفة التي جعلتني ألتقي بإنسان حقيقي مثلك، لك كل مشاعري الطيبة وتمنياتي بأن تبقى نموذجًا لكثير من الناس الذين هم في حقيقة الأمر لا يعيشون

الحياة ولا يقدمون حتى لأنفسهم خدمة تذكر، مرة أخرى أعلن عن اعتزازي بك.

توقفت السيارة، مد يده إلى جيبه لكنه فوجئ بالشاب يمسك يده برقة وهو يقول:

– أرجوك لا تعذبني، لقد أعطيتني ما هو أثمن.

فاجأه الموقف، أخذته لحظة امتنان ملأته ثقة وإعجابًا، انحنى إلى جهة الشاب، قبله في جبينه ثم فتح الباب وانزلق من مقعده خارجًا من السيارة بهدوء، وقف يلوح للسيارة التي مضت تتهادى في سيرها كما رآها أول مرة، وفي أعماقه تضطرم مشاعر مختلفة كأنها الطوفان.

١- ٨- ١٩٨٦

فضاءات فسيحة

نهض متباطئًا من كرسيه؛ بعد أن وضع كتابًا كان يقرأه على منضدة صغيرة أمامه وهو يردد: "ثمة ضوء قليل.. ثمة ألم عظيم". عقارب ساعته تُشير إلى الثانية عشرة تقريبًا قبل منتصف الليل، كان ضجيج الزقزقة يثيره تمامًا، ويغتصب لحظاته المضنية التي كانت تشده إلى كتابه، ولطبيعة العلاقة الوثيقة القائمة بينه وبينهن؛ فإنه في أغلب الأحيان يعرف ما تريد هذه المخلوقات النزقة والحبيبة إلى نفسه، لذا فإن تلبية رغباتهن كانت تسعده دائمًا.

عند توجهه ناحية الشباك الذي ثبت القفص الضخم خلفه مباشرة؛ أثار صراخ حاد من بين جلبة الأصوات المختلطة ببعضها والتي يبدو كما لو أن هذه الكائنات قد هوجمت بقسوة، ابتسم في سره، إنه يعرفه، ويعرف سبب صراخه، غمغم وهو يشعر بفيض من سعادة دافقة:

- أيها الرمادي الملعون، أعرفك جيدًا، إنك لا تهدأ أبدًا، تُرى ماذا فعلت؟ وماذا يحدث الآن في بيتك الذي يرتفع فيه الضجيج من كل أركانه؟.

فتح مصراعي الشباك فانهمر صوت الزقزقة داخل الحجرة الواسعة كشلال ضوء يسطع بألوان زاهية، يستطيع الآن أن يمد يده عبر المساحة المتاحة خلال العوارض الحديدية التي تؤطر الشباك ليرى سبب هذا الشغب في هذه الساعة المتأخرة من الليل. تذكر أنه لم يرَ طيوره منذ ليلة أمس، وهو على ثقة من أنها تود لو خلت الدار من وجودهن، يعلم جيدًا أنها لا تعيرهن أي اهتمام، بل إنه وجدها مرات عديدة تمنع الماء عنهن، وكانت شكواها مستمرة بلا انقطاع من إزعاجهن لها.

شمل القفص بنظرة سريعة، وجد الفوضى شاملة، كل شيء في غير مكانه، قدح الماء مقلوب ومركون في مكان قصي من القفص، فتات الطعام منثور في أجزاء متفرقة من القفص وخارج الأواني المعدنية الصغيرة المخصصة لها، والرمادي الملعون مازال يصرخ بلا كلل ولا ملل، يصعد إلى أعلى ثم ينزل إلى قاعدته ثانية، أحس بحزن يجتاح روحه بسبب بعض البيضات التي تكسرت جراء الفوضى الشاملة التي تنتشر في أرجاء القفص، قال وكأنه يتحدث إلى طيوره:

- حتمًا كان العدد سيزيد لو...

وتراجع بسرعة وهو يقطع خيط أفكاره، ثم يعود يتساءل ثانية ما قيمة "لو"، لا يكره شيئًا كما يكره هذه الكلمة ويمقتها، إنها شعار

الضعف والتخاذل في كل الظروف والمواقف، حدق ثانية إلى الطيور وتساءل:

- من الذي يقود هذه الفوضى داخل هذا المكان الصغير، إنه الخراب بعينه.

كانت كاللؤلؤة هذه البيضاء المتعالية العاتية.. سريعة الحركة، إنها تشمل المكان كله بحركاتها السريعة، تتبعها بعض من رفيقاتها المقربات لها، وما تبقى فقد تجمع على شكل حلقات، كأن أمرًا خطيرًا حدث وأن هناك حاجة لاتخاذ قرار ما بالنسبة لمصير هذه المخلوقات، مازال صوت الزقزقة يملأ سمعه، على مهل فتح باب القفص وأدخل يده المدربة، أمسك بقدح الماء وسحبه ثم مضى به إلى داخل البيت، رجع ثانية مسرعًا وثبت قدح الماء في مكانه المخصص، سحب أواني الطعام الصغيرة ووضعها في أماكنها وأغلق الباب بسرعة، ظن أن الطيور ستتدافع وتتجمع حول قدح الماء، وأن أصواتهن لن تلبث أن تتلاشى، مضى ثانية ليأتي بقطع من الخبز والطماطم المقطعة والخضر المفرومة، أفرحه أن الطيور بدأت تتدافع نحو منهل الماء، تقدم الرمادي أولاً ومعه اللؤلؤة البيضاء، شربا أولاً ثم تبعتهما الشقراء المشعة، وبعدها الصديقات الواحدة بعد الأخرى، أما الأسمر الداكن فكان كالعهد به هادئًا ورزينًا، دقائق وعاد ثانية ليفتح باب القفص ثم يوزع الطعام في الأماكن المعدة له.

غمره هدوء رائع وهو يرى طيوره تلتقط شيئًا من الطعام المقدم لها، ومع انشغالها بشرب الماء ونقر الطعام فإن أصواتها لم تنقطع، تلك التي تجمعت في حلقات وشغلت فضاء القفص بكامله، كانت تتقاسم الصراخ فيما بينها بدون انقطاع، أصغى باهتمام لهذا الهوس الغريب وتساءل:

– ماذا يحدث في هذا العالم الصغير جدًا؟

عذبته أفكار متباينة، أطلق آهة طويلة ثم غمغم قائلاً:

– آه لو كانت توليهن بعض الاهتمام، ليس لديك ما تفعلينه سوى النوم، أيها العمر المحسوب باللحظات ما الذي تبقى منك؟ عرضت الصداقة فرفضتها، عرضت السلام وقلت لها لابد من هدنة طويلة بيننا فهذه الحرب تبدو بلا نهاية.

صرخت إنني أرفض.. أرفض، لا جدوى من كل شيء، اعترف أننا فشلنا، نعم فشلنا حتى في أن نقيم علاقة بسيطة كما الناس الآخرين، أيتها الظالمة اغتصبت أجمل سنين حياتي وأجهضت أزهى أحلامي، ماذا بوسعي الآن أن أفعل؟ بل ماذا بوسع المهزوم أن يفعل؟ لا شيء، لا شيء سوى الخيبة، قلت ليس كالطيور مسرة، الغريب إنني عرفت في يوم ما من هذا العمر القصير معها، اعترف أنني أحببتها بكل براءتي وقد تكون سذاجتي أو قل رعونتي، حتى إذا صرنا زوجين بدأ الحلم بالتبدد والأمل بالضياع.

أوووه... كم الساعة الآن؟ كنت أردد شطرًا من قصيدة مترجمة كلما افترسني الغضب ونضب معين الحلم في الأعماق، ثمة ضوء قليل.. ثمة ألم عظيم، لم أستطع أن أحقق معها شيئًا من طموحاتي، فصار المستحيل حياتي، ومضى الخيال إلى شطآن نائية مجهولة.

تنبه ثانية إلى صوت الزقزقة التي سحبته من تداعياته المؤلمة، فضاق بها وهمهم: "هذه الطيور اللعينة لا تريد أن تهدأ"، كانت الأشجار التي تؤطر الحديقة من أركانها الثلاثة قد تسامقت وتشابكت أغصانها، وبدت في هذا الجو ومن هذا المكان كما لو أنها مدخل غابة، منذ فترة بعيدة فقد الاهتمام بها وبأشياء كثيرة، كان القمر في هذه الليلة يسيل ضوءه على كل الأشياء ويغمرها بذلك الفيض السحري الأخاذ، فيحيلها إلى عوالم ترفل بالهدوء والبهجة، سره أن ينظر إلى القمر ويطيل التحديق إليه، رآه خلال الأشجار والسحر الذي غمر نفسه فارسًا أبيض الوجه يمتطي صهوة جواده الأدهم، فارسًا رائعًا مكتمل البهاء والنور، ثمة شيء يتفتح داخل النفس، غيوم سود تغادر أعماقه، سعادة مفاجئة هبطت عليه كرذاذ مطر ربيعي، سعادة تسللت إلى كل عروقه فامتزجت مع دمائه، أصاغ السمع لهدير الحياة العارم يتدفق في مسارب روحه، هتف بامتنان مخاطبًا الكون الذي بدا أمامه متفتحًا فسيحًا بلا نهاية أو حدود:

- هل بدأ تاريخ جديد في حياتي منذ اللحظة؟ هل مضت أيام الجفاف إلى غير رجعة؟

ها هي سيول الحياة تتدفق دون هوادة، لقد افتقدت روحه منذ زمن بعيد هذه اللحظات النادرة، الآن لم أعد غريبًا عليها، إنني أعود ثانية إليها، أعود لأحضانها الدافئة بعد فراق طويل.. طويل، سأرسم بيدي مساحة الأيام المشرقة القادمة، إن هذا اللهيب الذي يستعر الآن في عروقه سيحرق تردده وضعفه، بل إنه سيدمر كل جبنه، ها أنا ذا أقف على شاطئ جديد أهتف بكل ما في صوتي من قوة، أيتها الطيور الرائعة، أيتها الكائنات البريئة، اللحظة أولد من جديد، ما كان في الماضي لن يتكرر ثانية، سأفتح باب القفص، وها أنا ذا أفرد جناحي ليمضي كل منا إلى فضاءاته الفسيحة، ولسوف نردد معًا.. "ثمة أمل عظيم، ثمة ضوء كثير".

٤- ١٢- ١٩٩٠

دخـان

(١)

أشار إليه فجاء مهرولاً فرحًا، دار حوله ثم أقعى أمامه فاتحًا شدقيه عن أنياب بيض طويلة مدببة، لاح له لسانه متدليًا طويلاً، هز رأسه، حاول أن يقوم ليداعبه ثانية كعادته لكنه أشار إليه أن اجلس في مكانك، فهم الأمر وعادت عيناه تتجولان فيما حوله، ثم تتحولان لتركزا نظراتهما على الرجل الواقف أمامه، سادت فترة صمت قصيرة، قطعها صوت الرجل الهادئ العميق:

- دخان، اسمعني جيدًا!

هز دخان ذيله وانتصب صيوانا أذنيه كرمحين ثُبتا على جانبي الرأس الكبير، ارتفعت نبرات الصوت العميق ثانية:

- لا أريد لكلماتي هذه أن تموت في صمت الزمن الذي يمر بنا، في زوايا هذا القلب المتعب الذي اختزن مشاعر وآلام لا حصر لها، أمواج من الذكريات هي سنوات العمر الذي يخطو نحو الخمسين، لماذا تراني واقفًا في هذا المكان الأثير على نفسي؟ أنت لا تعلم بالتأكيد، ذلك زمن بعيد لكن الموقف كله مازال حاضرًا في الذاكرة.

وينقطع الصوت العميق وتتوقف تداعياته، فتسود فترة صمت أخرى يسمع خلالها صوت الناعور واضحًا مستمرًا كموسيقى بعيدة الإيقاع. وهناك بعض طيور تحوم في المدى الشاسع أمام ناظريه، فتلتمع الذكريات في عقله لينطلق الصوت ثانية:

– منذ عهد بعيد موغل في القدم غرست نخلة في هذا المكان، كانت من الارتفاع والمهابة بحيث لم يجرؤ أحد على تسلقها إلا والدي، كنت آنذاك طفلاً، لا أكاد أعي ما حولي، كانت هذه النخلة تثير في ذهن ذلك الطفل أحلامًا غريبة ورؤى عجيبة، كان ارتفاعها الهائل يتحدى خيالي ويقمع إرادتي، ولطالما تمنيت لو أستطيع أن أتسلق جذعها الطويل الرشيق أو بعضه، كانت حلمي، وكانت صديقتي، فقد عشت في تلك الآونة وحيدًا بين والدي، وكانت الأرض الخلاء التي تحيط بها ملاعب طفولتي وملهاتي، كانت بذورها تتيبس في علوقها فتتساقط على الأرض، كنت ألتقطها وأجمعها وأحتفظ بها، وكانت في فمي ألذ الأطعمة، دخان.. هل تسمعني؟.

هز دخان رأسه منتشيًا بهذه الثقة والوقفة التي تجمعه مع سيده، تدفق الصوت كالماء المنساب في ساقية الناعور القريبة منهما.

– في يوم بعيد؛ اجتمع والدي بمجموعة من الرجال الذين يعملون في البستان، قرروا أن يقطعوا جذع النخلة الحبيبة ليصنعوا منها أعمدة لسقوف البيوت التي يجب أن تبنى، وقتها هربت بعيدًا

عنهم، جلست في مكان أراها شاخصة أمامي، انسابت دموعي دون وعي مني، شعرت أن شيئًا غاليًا سوف يموت أو يقتل، كرهت الرجال وحقدت عليهم، لكن مشاعري لم تقترب من دائرة الحب والاحترام الذي أكنه لوالدي. نهضت مذعورًا من مكاني وأنا أشاهد والدي وقد بدأ يتسلق جذعها الحبيب، بدأت أقترب من المكان، كان والدي مازال في الطريق إلى قمتها، وقد تدلى حبل طويل متين من وسطه، صاح الرجال صيحات فرح وهم يرون أبي على مقربة من قمتها الخضراء، بدا لي بعيدًا بعيدًا عني، امتلأت بخوف رهيب كما لو أن والدي لن يعود ثانية، لكنه كان مازال يشق الفضاء متقدمًا نحو هدفه باعتداد غريب وقد صار لبعده كتلة رمادية ليس لها سمات واضحة، رأيت أبي يتوقف عند عنق النخلة وبسرعة شد الحبل المتين حول ذلك العنق الجميل ثم كرَّ راجعًا بسرعة قِط، كان الرجال ينتظرون رجوعه ليبدأوا العمل، وكان المنشار الضخم قد بدأت أسنانه تغور في عمق الجذع الذبيح، أمسكت مجموعة أخرى من الرجال بالحبل المتدلي من أعلى النخلة وبدأوا السحب.

في تلك اللحظات المفعمة بالجهد؛ انفتح الحبل، ووقع على الأرض، ساد صمت متوتر، كان السؤال من يصعد هذه المرة والأمر أكثر خطورة، إذ أن المنشار كان قد قطع جزءًا لا بأس به من الجذع الرشيق، فاجأ والدي الرجال ووثب نحو النخلة، شد الحبل حول

وسطه وحول الجذع وبدأ التسلق ثانية، شخصت أبصار الرجال إليه، كان يصعد الجذع المائل بخفة ومهارة، كان الصمت عميقًا ووالدي مازال يتقدم نحو القمة، امتلأ قلبي بخوف هاجمني بعنف، شعرت أن والدي لن يعود ثانية إلى الأرض، رحت في إغفاءة قصيرة، كان الخوف والقلق قد أخذا مني مأخذًا، حين فتحت عيني كان أبي قد كرَّ راجعًا وعلامات الفرح بادية على وجهه، كان يتصبب عرقًا، صاح بالرجال:

- هيا إلى العمل..

كان الجذع السامق قد بدأ يميل نحو شاطئ النهر، ثم وبصورة مباغتة وسريعة رأيته ينهار ويسقط في المكان الذي أراد الرجال أن يكون فيه، كان رأس النخلة قد انفصل عن جذعها وسقط في النهر، في تلك اللحظات المرعبة هجست أن شيئًا ما تمزق أو مات في أعماقي، ربما وجودي كله قد خضع، ومنذ ذلك الوقت لتلك الحادث اعتبرت أنني فقدت عزيزًا لا يمكن تعويضه.

لذا تراني كلما عاودت المجيء أقضي أغلب الساعات في هذا المكان الذي صار جزءًا من ذكرياتي وأحلامي وحنيني، إن هذا المكان هو الجزء المهم من البستان.

دخان.. أقول لك هذا لأن البستان بكل تاريخه وذكرياته أمانة في عنقك، وأنا أعلم الناس بوفائك، قبلت الرهان بالبستان من أجلك أنت، ستقاتل كلبين متوحشين من كلابهم، في ساحة بستانهم

المجاورة، فإن انتصرت عليهما سيكون بستانهم جزء من أرضنا هذه، أما إذا حدث العكس فإني سأودع هذا المكان إلى الأبد، هل تراني اخطأت التقدير؟ هل ترى أن لحظة جنون قد تغير هذا العالم الذي يحيط بنا؟!

أمسك رأسه الكبير بكلتا يديه، طفق يحدق بالعينين اللتين تحولتا إلى جحيم مرعب، قال بصوت حزين:

- لن تنال طعامًا.. وسأبقى جائعًا معك، وهو شرط من شروط الاستعداد للجولة القادمة، أريدك فارسًا لا ينقشع عن صولته، دخان.. ها أنا أسلمك الماضي والحاضر وربما المستقبل، فهل أنت أهل لهذه المهمة؟.

مد جسده الضخم إلى الأمام، رفع رأسه وكشر عن أنياب مخيفة، ثم بدأ بالزئير، الآن فقط يستطيع أن يتقدم به وهو مطمئن فالزئير عنده علامة من علامات الصدق في المواقف الكبيرة التي عرفها عنه سابقًا.

• • • •

(٢)

دخل مع كلبه إلى الساحة التي تتوسط بستان جاره والمُعدة للمعركة الغريبة القادمة، معركة غير متكافئة وغير معقولة، إلا أن ثقة أكيدة تملأ جوانب نفسه، وتغريه بقبول التحدي حتى نهايته، رأى صاحب البستان يقف مع مجموعة من رجاله على سطح غرفة يشرف منها على الساحة المتربة، هتف به:

– هل أنت مستعد؟

أجابه بصوته الواثق العميق:

– تمام الاستعداد!

عاد الرجل ليقول:

– إذن تعال إلى جانبي لنشاهد معًا ما سيحدث لكلبك المسكين هذا!

رد عليه بصوت حازم وخارق:

– ابق مكانك بعيدًا، أما أنا سأراقب المشهد من مكاني هذا.

أشار الرجل الواقف على سطح الغرفة بيده فانطلق إلى الساحة كلبان أسودان ضخمان من أحد الأبواب المطلة على الساحة، انفلت دخان كالشهاب، فاجأ الكلبين بقفزة واسعة، ارتفع صوت زئيره ثم ما لبث أن اشتبك مع الكلبين.

كانت المعركة قاسية وسريعة، انتشرت في روحه التي أنهكها القلق والانتظار بشائر فرح وفيض ثقة لم يشعر بمثلهما من قبل،

أبعد عن نفسه كل أثر يشم من خلاله رائحة الانكسار أو الهزيمة، هذا أسدي وصديقي، ستأتي إلي أيها الساحر الأشم بالنصر الأكيد. تنبه إلى أن أحد الكلبين الأسودين قد سقط قريبًا من الباب الذي انطلق منه، بينما الآخر بدا متراجعًا، إلا أن دخان لم يمهله فعاجله بعضة، التقط فيها رقبته ومضى يسحبه نحو الساحة التي مازال الغبار يملأ فضائها.

قدر أن المعركة على وشك الانتهاء، وأن الدقائق القليلة القادمة سوف تحسم بالتأكيد نهايتها ونهاية الكلبين الممزقين بأنياب دخان المهولة، إنه لا يزال في عنفوانه كفارس خبر المعارك وعرف أسرارها، انقشع الغبار رويدًا رويدًا وبدأ الهدوء ينتشر في المكان الذي كان إلى وقت قصير مسرح لصراع مرعب، بدا كل من الكلبين مطروحًا على الأرض مثخنًا بجراحه.

دار دخان في الساحة مهرولاً كمقاتل يعرف قيمة الانتصار الذي حققه باقتدار مذهل، توجه لسيده الذي فتح ذراعيه له وهو يمسح بعضًا من دمائه التي خضبت وجهه وطوق عنقه، مرغ رأسه في حضنه ثم انفلت منه مهرولاً أمامه، تبعه وينابيع فرح تتدفق في أعماقه، همس: "الآن تستطيع أن تحيا بعيون لا تعرف القلق أو الخوف".

٨ – ١ – ٢٠٠٠

انتباهـة

فتحت له الباب فبادرها متسائلاً باهتمام:

- ما الأخبار؟ كيف حاله؟

أجابته وعيناها تنأى عنه:

- لا جديد، حالته تسوء يومًا بعد آخر.

أشارت إليه بالدخول ثم قالت:

- تفضل..

دخل ثم استدار ليتوجه إلى الغرفة الفسيحة، اتجه نحو السرير الذي يرقد عليه المريض، وقف أمامه، رآه شبحًا ممددًا على فراشه، وجهه يذكره بالفناء والعدم، كانت يداه مسبلتين إلى جانبيه وأنفاسه تتسارع تارة ثم تعود لتبطئ أخرى، أحس برهبة الموت المخيمة على هذا الكائن، كانت هي تجفف جبهته وتمرر المنديل الورقي على شفتيه، خاطبها بصوته الثابت:

- إنه أسوأ بكثير مما كنت أظن.

تهدل شعرها الأسود الغزير على كتفيها، أزاحت بعضًا من خصله عن جبينها وعينيها، فبدا وجهها متعبًا ومتجهمًا لكنه لم يفقد سحره القديم، ركزت نظراتها على وجه زوجها ثم همست بأسى:

– توقفت ساقاه تمامًا، لم يعد يحركهما، قال الطبيب الذي رآه أمس أن العجز في الكليتين يكاد يكون كاملاً، ونسبة اليوريا في الدم تجاوزت ١٢٠.

كمن يداري مشاعر تدفقت مسرعة في أعماقه حاول أن يزيحها جانبًا قدر ما يستطيع، تساءل مرة أخرى:

– وهذه الأدوية التي تتكدس هنا؟

أشار إلى طاولة وضعت بجانب سرير المريض، أجابته:

– إنها مقويات من مختلف الأنواع.

– هل يتناولها في أوقاتها المحددة؟

أجابته وكأنها تنشج:

– إنني أصارع وأتحايل عليه كي يأخذ كبسولة واحدة، منذ الليلة الماضية امتنع عن كل شيء حتى الطعام القليل، أما الماء فإنني أسقيه بواسطة الملعقة الصغيرة.

ثم أشارت إلى كرسي قريب ليجلس عليه، تلاقت نظراتهما للحظات، إلا إنها أدارت وجهها نحو الجسم الممدد ثم خاطبته:

– سأحضر لك الشاي.

أشار رافضًا ثم تساءل:

– والآن.. ما العمل؟

– لا أدري، لقد أدخلته ثلاث مستشفيات، استدعيت له أكثر من طبيب، يبدو أنه لا أمل في شفائه.

- إذا كنتِ تريدين نقله إلى المستشفى فعلينا أن نتصل بالإسعاف، ثمة خطورة أكيدة في نقله بسيارة عادية، وأعتقد أن المغذي يفيده كثيرًا في مثل حالته هذه.

هاجمتها عيناه، "شبتِ كما شبتُ أنا، وبان على قسمات وجهك حصاد السنين الماضية، لكن جنوني بك مازال يعربد في الأعماق كما هو، بل وأكثر، لم تضعفه السنين التي انصرمت، تخليت عني في اللحظة التي كنت أحتاجك فيها إلى جانبي، واخترت كمال هذا، لقد تعودت أن ألطم الدنيا على أنفها، أشتبك معها، أقاتل حتى أمسك بيدي ما أريد، لكنني خسرت المعركة معك، لأنها معركة اختيار وليست شجارًا.

كنت اعلم إنك لن تسعدي معه، هل تذكرين أخر مرة التقينا فيها قبل مرضه، في سفرة المكتب الذي نعمل فيه إلى بحيرة الحبانية، تكلمت العيون طويلاً، قلت ما أريده، وقلت أنت ما تريدينه كذلك، ثم رأيته يتداعى، أتعبه السكري، نخره كما تنخر حشرة السوس عمودًا من الخشب، لكم حذرته في حينها ولأكثر من مرة، لكنه لم يهتم، لن أقول أبدًا من يضحك أخيرًا، كلا.. لن أكمل ما تبقى من هذا المثل، لكني صاحب حق فيك، وها نحن نتقابل منذ أن أعجزه المرض عن الحركة قبل أكثر من شهر، وكل ما قدمته لكِ، لكِ أنت أولاً، أما الزمالة القديمة التي حرصت عليها لأجلك فتلك قصة أخرى"، قطعت عليه تداعياته:

- لقد حرك رأسه..

ثم خاطبته بنعومة وهي تنحني عليه:

- كمال.. كمال تنبه قليلاً، تكلم إلى هشام، كلمه أرجوك.

كانت تتوسل إليه، بهره المنظر، توزعت نظراته الجائعة الملتاعة على جسدها المنحني فوق المريض، ثم حطت على مؤخرة ظهرها، كانت تتطلع إليه وهي تتضرع كأنها تتعبد، كانت تتلفع بروب وردي طرز بزهور ناعمة، بدت من خلاله كأنها حديقة صغيرة رائعة، نهض واقفًا ثم تقدم إلى الأمام، صار بجانبها، انحنى قليلاً، التفت، فصافحت وجهها أنفاسه الحارة اللاهثة، توسلت بعينيها وهي تقول: "هشام كلمه، قل أي شيء لعله يتنبه، إنني متعبة، متعبة يا رب".

أحرقت وجهه أنفاسها الحارة الناعمة، رأى شفتيها تنفرجان عن آهة حارة طويلة، قال بصوت أجش سحقته الرغبة ولونه الخوف بألوان شتى:

- كمال.. يا كمال.. ألا تقول شيئًا؟ هل تحتاج إلى طعام أو ماء أو أي حاجة أخرى؟ قل كلمة يا رجل، افتح عينيك، قل كلمة.

انفرجت شفتا المريض، فبانت أسنانه صغيرة منسجمة كأسنان طفل، أطلق آهة خفيفة، تراجعت هي قليلاً إلى الخلف وبدأت تنظر إلى وجه زوجها، نظرات تائهة، تهاوت على كرسي قريب منها وهي تكفكف دموعًا انسابت على وجهها، جففتها بمنديل ورقي

كان بين أصابعها، جلس قبالتها، التقت العيون، "سراب.. سراب، هذا الذي نسجته بيديك، تأملي ما نحن فيه، أليست الحياة مهزلة، الفناء فيها ينتظر خطواتنا، إنها البوابة الكبيرة التي سيمر الجميع عبرها ودون استثناء". حركت أصابعها، دعكتها مع بعضها، سمع طقطقتها وهي تتشابك بعضها ببعض، ثم همست:

- لا فائدة من كل شيء.

أجابها بصوته الواضح القوي:

- لا داعي لليأس، هناك دائمًا أمل أو فرصة وإلا أصبح كل شيء بتفاهة بعوضة!

- سأعطيه ماء.

- حاولي.

انحنت بالقدح عليه، حاولت أن ترفع رأسه ثم جذعه فلم تستطع، قام يساعدها، وضعت حافة القدح بين شفتيه وخاطبته:

- كمال اشرب.. اشرب شيئًا من الماء، قليلاً منه سيفيدك، هيا يا كمال ماذا دهاك؟ حتى الماء قاطعته..

نشجت وهي ترجع رأسه إلى الوسادة والقدح إلى المنضدة، ثم حاولت أن تجلس على الكرسي، فجأة أمسك بها، هاجمها في اللحظة التي كانت فيها تتهاوى، أمسك بكتفيها، قالت مستنكرة:

- هشام.. ما هذا؟!

أجابها بصوت مرتجف:

- لا عليك.. لحظات وسأجعله ينتبه!

كان يعمل بسرعة، أصابعه تفك أزرار الروب واحد بعد آخر..

- لا.. هشام لا.

دفعته بيدين واهنتين، لكنه همس:

- لا عليك يا عزيزتي سامرة، سينتبه، ثقي إنه سينتبه.

أحسها كما لو كانت قطعة من الإسفنج بين يديه، خارت قواها، تسارعت أنفاسها، تجمع الزمن في لحظة جنون هائلة، ساد صمت ثقيل، كانت وطأته رهيبة على كل الأشياء، فتح المريض عينيه أول مرة، حرك رأسه تجاههما، تنفس بعمق، اتسعت الحدقتان بعد أن رأى الصورة كاملة، رفع رأسه قليلاً، قال هشام وهو ينظر إليه خلال شعرها الغزير:

- ألم أقل لك.. لقد بدأ ينتبه!

حاول المريض أن يقول شيئًا، أن يتفوه بكلمة، أن يخرج صوتًا، ها هو يرفع رأسه إلى أقصى حد يستطيع، ثم وبسرعة يهوي نحو الوسادة، ران هدوء موبوء على جو الغرفة، صمت يُطلق الموت خلاله ضحكات ساخرة، لا نهاية لها.

تموز ١٩٩٧

شواطئ نائيـة

انساب الصوت العميق إلى فضاءات روحها الملتاعة، وأحاسيسها المليئة بشتى الأفكار التي روعتها وأدمت أعماقها، تعلقت عيناها المتألقتان في سمات وجهه الذي اكتسى برقة طالما أحبتها، وفي ذات الوقت أخافتها، قال وهو يبعد نظراته عنها:

– نكمل مشروعنا الذي بدأناه منذ أيام!

ثم بعد فترة صمت قصيرة تابع:

– نحن الآن أصدقاء، أصدقاء فقط هكذا اتفقنا في حينه، وكما تعلمين فإن للصداقة..

انقطع الصوت الذبيح بعد أن امتص صمت روحها وأقلق لحظات راحتها، مضت تخاطب أشجار الحديقة الباسقة، كانا يجلسان على أرجوحة تعودت أن تهزها بقدميها هزًا خفيفًا، تسرح من خلاله مع خيالاتها البعيدة، رأته وقد أطلق خيطًا طويلاً من دخان سيجارته، وتاهت نظراته في أفق الحديقة المترامية، همس كمن يستغيث من أمر عظيم وهدوء الليل ينسج ألوانه العميقة الداكنة حولها:

– لابد من مراجعة للذات بين الحين والآخر، تلك عادة لو تحققت فإنها تعني الكثير بالنسبة لي ولك.

ساد صمت قصير خدشه حفيف أوراق الأشجار المحيطة بهم، كانت في هذه الآونة تحدق في فراغ لا نهائي، تساءلت في سرها: "كيف ومتى بدأت هذه الهواجس الشريرة تستوطن مخيلتك وتعشعش في ظلام أفكارك التي لم اسمع بها من قبل، تُرى أهذا حصاد عشرين عامًا من الحب والتضحيات؟ عن أي شيء تبحث يا رجل، أية شواطئ نائية جرفتك إليها أفكارك المستحيلة هذه؟".

كانت تتعذب بصمت فداهمتها رغبة عنيفة للانخراط في نوبة بكاء طويلة، تزيل ما في صدرها من دخان كاد يطبق على أنفاسها، لكنها في لحظة سريعة وشجاعة قررت أن تنازله بالعقل والمنطق، كانت تثق أن سحابة الشك والجنون التي تغلف عقله هذه الأيام لابد أن تتلاشى وتزول، التفتت إليه وكان مازال ينفث دخان سيجارته قائلة بصوت يمتزج في تضاعيفه الجد والهزل:

- هل أعددت برنامجًا جيدًا لتعذيبي؟

ثم استطردت بعد هنيهة:

- في أوقات كثيرة ماضية كنت أحس أنك تريد أن تقول شيئًا يقلق راحتك، ويثخن أعماقك جراحًا، على أية حال حاولت تجاهل كل ذلك، مستعينة بحبي لك تارة وبصبري العجيب تارة أخرى، والآن يبدو لي إنك مصمم على أن تُسيء لكرامتي ومشاعري بتعمد واضح.

ضحكت ضحكة قصيرة، أحست كما لو أنها كانت ضحكة مهزوم، هزت الأرجوحة بقدميها مخففة بعض قلقها، ثم خاطبته بكبرياء وثقة:

- أعرف عن ماذا تبحث، وللأسف لا يوجد عندي ما تبحث عنه، بل لا توجد في حياتي صفحات مجهولة بالنسبة لك، فلقد كتبت أنت كل صفحاتها، ومنحتك منذ أول يوم عرفتك فيه أحلى وأجمل ما تمنح المرأة للرجل، وهبتك العقل والروح وليس لدي ما أقدمه، بل ليس باستطاعتي أن أعطيك أكثر مما أعطيت، أود أن تبقى ذلك المتفائل الذي أعرفه، أرى الآن شريط حياتنا منذ أول يوم التقينا فيه، وأرجو أن تبقى ألوانه زاهية كما كانت وكما هي في الحقيقة.

أسندت رأسها على حافة الأرجوحة ثم تساءلت مكملة ما بدأت به من حديث، وكان هو قد أشعل سيجارة أخرى، خاطبته هامسة وكان الليل يقطر سكونًا عميقًا:

- عن ماذا تفتش؟ عن قصة حب أم عن قصة عبث كنت في يوم ما بطلتها، باستطاعتي أن أحدثك عن الكثير في هذا المجال، فأنت تعلم جيدًا أن لي خيالاً خصبًا يسعفني تمامًا بما أريد، أيسرك هذا؟

مدت ساقيها إلى الأمام ومضت تنتظر ما سيقوله:

- لقد فهمت الموضوع على غير الشكل الذي أقصده تمامًا، فلا أحد يشك في نفسه إلى الحد الذي يؤذيها، وأنت كما تعلمين كل حياتي، ما أريده بالضبط...

رفعت يدها وقالت بصوت قاطع وحاد:

- ما تريده ومصمم عليه أعرفه تمامًا، أنت تريد أن تعرف إن كانت لي قصة حب مع إنسان آخر عرفته قبلك كما يحدث عادة لأغلب الفتيات في سنوات الصبا المبكرة، حيث الخيالات والأحلام تمتزج معًا بحيث لا تعرف الواحدة منا أين الحلم وأين الحقيقة، أؤكد لك أن تلك المشاعر لا تنسى، بل لا يوجد في حياة الإنسان ما ينسى عادة، أليس كذلك؟

أجابها بصوت خلا من القلق الذي راوده قبل لحظات:

- كنت صادقًا معك إلى أبعد حدود الصدق والوضوح، لقد سردت لك كل عبث أيامي الأولى، وأجدني متخففًا تمامًا من تلك الذكريات السابقة بكل تفاصيلها.

وهي ترنو إلى أصيص أمامها قالت في سرها: "لقد بدأت المعركة ولابد لي من مواجهتها دون خسارة ثقته ورضاه". كانت تعلم جيدًا أنه يحبها إلى الحد الذي لا تستطيع هي أن تصفه، ولكنها في ذات الوقت تعلم بأن كلمة صغيرة لا تقع من اهتمامه موقع القبول تستطيع أن تحرك بقعة مجنونة في أعماقه فيتحول في لحظات إلى وحش كاسر، لذا كان عليها أن تتدبر أمرها بشكل هادئ، وتختار كلماتها اختيارًا دقيقًا، بحيث لا تتأثر تلك البقعة بما يحول الموقف إلى انفجار. خاطبت نفسها ثانية: "تدبري أمرك جيدًا"، التفتت إليه وفاجأته ممزقة الصمت الذي ران عليهما:

- سأقول لك.. وثق بما أقول، لا توجد في حياتي أسرار غريبة كما يخيل إليك، أو كما تتصور، ويدمي دواخلي الآن أن أقف أمامك كمتهمة، عليها شاءت أم أبت أن تُدلي بما عندها من معلومات، ولولا حرصي الشديد على إرضائك لما تفوهت بكلمة واحدة بعد كل هذه السنين الطويلة من الألفة والثقة والحب.

قطعت كلامها ضحكة مخنوقة بمشاعر شتى ثم أكملت:

- حسنًا.. اسمع يا عزيزي، في يوم ما من تلك الأيام التي نسميها أيام الصبا المبكر حيث تختلط الخيالات بالأحلام، فلا تعرف الواحدة منا ما إذا كان أمامها وهمًا أم حقيقة، كان جار لنا، تعرفت إليه أو هو الذي تعرف بي، تفتحت مشاعرنا على عالم ساحر ومضيء، كنت ألتقيه صباحًا ونحن في الطريق إلى المدرسة، ونلتقي ثانية ظهرًا بعد انتهاء الدوام، كنا من البساطة والسذاجة بحيث أن الكلمات كانت عبارة عن همهمة، وكان الخوف يأخذ منا كل مأخذ، ومع هذا كنا نسعد في تلك اللقاءات البريئة السريعة، كنت في أحيان أخرى لا أستطيع لقاءه بسبب مجموعة من الزميلات اللاتي كن معي، ماذا قلنا وعن ماذا تحدثنا؟ لا أذكر شيئًا من ذلك، كان الخجل يلفنا والخوف من رؤية أحد لنا يفسد علينا حلاوة اللقاء، لا أذكر من ملامحه الآن شيئًا واضحًا إلا أنه كان مؤدبًا ودافئًا، كان يُهديني وردًا فتجف بين أوراق دفاتري وكتبي، ومرة أعطاني رسالة لم يكتب فيها سوى كلمات ساذجة من قبيل "أنا أحبك وأنتِ

حياتي"، فوجئت في يوم يبدو الآن بعيدًا تمامًا كأنه غرق في زحام الزمن، كانت العائلة قد انتقلت إلى مكان آخر، ومضت تلك العلاقة العابرة إلى نهايتها دون أن تترك في دواخلي ما يستحق الاعتبار، ثم امتدت بنا الحياة ورحل بنا الزمن.. فجأة.. وجدتك أمامي في رحاب الجامعة، فكنت مطابقًا للصورة التي استوطنت كياني، صورة الرجل الذي حلمت به، والباقي من القصة أنت تكملها!

صمتت قليلاً، شعرت أن لا رغبة لها في قول أي شيء آخر، إنها متعبة تمامًا، أما هو فبدا منفعلاً من الجو الذي خيم عليها، كان صوتها رخيمًا وهي تنطق كلماتها التي كانت تلامس أعماقه المضطربة، أحس بالصغر أمام هذا الوجود الرائع، إنه يعلم الآن كم عانت وهي تستعيد ذكرياتها البكر، ملأه حنين جارف لاحتضانها، لكنه يعرف جيدًا أن حالتها لا تسمح بذلك، مد يده بتردد وخوف واضحين فأمسك يدها، سمعها تنهنه، سحبت يدها لتمسح دموعًا كانت قد طفرت من عينيها في لحظة عذاب خارقة.

١ – ٩– ٢٠٠٠

الـوهـــم

غدًا.. غدًا.. وتنسل من بين الشفتين آهة كأنها الهمسة، ويبقى الغد في ذاته خيطًا وردي اللون يداعب الخيال ويعبث به، غدًا هو الحقيقة التي لا تريد أن تولد، ويبقى الغد الوهم الذي أضاع من عمره ما أضاع وهو راض عنه وقانع به.

أدرك أخيرًا أن أشياءه تنساب من أمامه وخلفه كانسياب هذا النهر في هذه الأمسية الرطبة، كل شيء حوله يذكره بالخلود، وينسل من قاعه خيط الذكريات فتنهد الحلقات ويبدأ الصراع، عنيفًا صاخبًا تارة.. هادئًا لا يمس أحيانًا كثيرة، وهذه الأمسية التي زرعته هنا فوق هذا الجسر لها وقع الحياة المتدفقة في أعماقه، المشاعر الجديدة تجري في جسمه كجريان الدم في شرايينه، كانت حكمته دع كل شيء ينساب ويمضي إلى حيث لا عودة، دع الغد يأتي أو لا يأتي، يحمل في ثناياه النور أو الظلمة.

يا للقلب الذي لم يعد يعرف ما يريد، تساوى كل شيء عنده دون هدف، إلى متى؟ لم يكن يدري، حاول من قبل بجدية، وأحيانًا بعفوية الأطفال حتى إذا اصطدم حاول الهروب؛ أحس بهواء جديد يدخل رئتيه وينساب في خلاياه يغذيها ويعطيها القوة لكي تقاوم،

لكنه يعود فيتخاذل بعد حين، تجره قدماه إلى هنا أو هناك، يبحث عن جديد لكي لا يحيل حياته إلى صفحة لا يكتب عليها شيئًا، ثم أنهكه التعب وأضناه المسير.

نظر إلى الوراء.. رأى الثلاثين تتهاوى عبر الطرقات التي مر بها، شواهد فشل وخيبة لماضي يريد التحرر منه، لكنه ملتصق به كالتصاق الجلد بالعظم.. ثم توقف، كان لابد له من التوقف قليلاً، استجمع قواه، احتوى تجارب الماضي كلها ثم جدَّ السير ثانية، هذه المرة كان جديدًا، حتى مع نفسه، اندفع بقوة بعد أن أدرك أن لا سبيل غير هذا الذي صمم عليه وتوقف من أجله، هو العزاء عن كل ما فقده في السابق.

وانفصل عن رحلة الثلاثين، إنه يبدأ من جديد وبعض الصور لماضيه تلوح وتتراقص أمامه، تشحذ همته، وتعطيه القوة على الاستمرار، لاحت له الأبنية الممتدة كالخيال على الجهة اليمنى من النهر، ركز نظره في الماء المنساب من تحته بهدوء، أحس لفترة بسعادة غامرة، هذا الماء يتجدد كل لحظة ويجب أن يكون مثله هو الآخر يتجدد، تلاشى كل شيء حتى الخيال، الصور التي أدركها حسه في البداية تذوب، والنهر يتحول إلى محيط خيالي البعد، وتجرفه موجة خوف طاغية، ثم يضيع.

قبل قليل كان يبحث عن الغد، لكن هذا الغد انتهى إلى تلك الجبهة العريضة التي غرقت في نزيزها، أطفاله بانتظاره وعلى وجوههم

ابتسامة، إنهم بانتظار الأب، وفي لحظة واحدة توضحت بعض معالم الصورة أمامه، ثم كانت مقارنة هذا ببدلة العمل وعرقه يغطي وجهه وبين يديه حصاد يوم، وهو بخوفه وتردده وبُعده عن الحقيقة، رآه يدلف إلى السيارة بقوة فلم يتردد، كأنه استمد منه ما كان ينقصه، وبدأ الطريق يتهادى شيئًا فشيئًا تحت عجلات السيارة وثمة نسيمات تداعب الوجوه، فتعلو الابتسامات وبعض الحكايات تختلط بصوت السيارة، ويبدو كل ذلك جوًا جديرًا كأنه يوم جديد..

٢٠ – ٦- ١٩٦٩

أبديات أزلية

(١)

وجدتني ضائعًا وحزينًا في خضم أحداث ألمّت ببيتنا، أحاطت بحياتنا لتحيلها رمادًا غطى الوجوه والنفوس بغلالة من الكآبة المعتمة، حتى الفرحة التي كنت سأحتضنها في داخلي لمدة طويلة، فرحة نجاحي في الامتحانات العامة، وآمال الدراسة في الجامعة والتي بذلت من أجلها الجهد المضني والمستمر، طوال أيام العام الدراسي، كل هذه الأمنيات وتلك المشاعر وجدت لها مستقرًا، فانزوت ساكنة منكسرة في تلك الأعماق التي غمرها الأسى وأنشب العذاب أنيابه فيها كوحش مفترس.

لم تفارقني صورة عمي وهو يغادرنا ملفوفًا بالعلم، كان عزيزًا علي، كريمًا معي، كنت أعتبره وعمي ماجد صديقين لا غنى لي عنهما، وكان خالد قد تزوج منذ مدة ليست طويلة، التحق بعدها بوحدته العسكرية ليمضي إلى نهايته غير المتوقعة، وبهذه السرعة الغريبة التي لم تكن تخطر على بال أحد منا.

قرر أبي أن يُبقي زوجة أخيه معنا، وأن تكون جزءًا أصيلاً من العائلة، رحب عمي ماجد برأي أبي، واعتبره عين العقل والحكمة،

من غرفتي في الطابق الثاني كنت أتأمل ما يجري أمام ناظري، ثمة مشاعر تفترس الروح وتنشر بين مساماتها قلقًا طالما كان يتعبني ويؤرقني، أبي بعصبيته المستمرة وغضبه المدمر بدا أقل تهيبًا وأهدأ حالاً من ذي قبل، كنت في أحيان كثيرة أقف بينه وبين والدتي أدرأ عنها تجاوزاته غير المبررة، وكنت أتلقى ضرباته بهدوء حتى ينفث أخر ما يتبقى من ذلك الجنون الذي يحوله في لحظات إلى كائن آخر لا صلة له بالأصل البتة، ثمة قلق جديد بدأ يضرب في صحراء روحي، ويوغل في ليل أعماقي، كانت صحة والدتي تتردى، دعوتها أكثر من مرة وبإلحاح لزيارة الطبيب، إلا أنها رفضت بعناد الذي يريد أن ينتحر قائلة:

- لا أريد لهذا العمر أن يمتد بي طويلاً.. دعني أغادر هذه الدنيا غير آسفة عليها.

هكذا إذن سيدي الوالد تحولت إلى سبب أكيد ومهم لنشر التعاسة والآلام في ربوع هذا البيت الذي ربما لا يستحق ما لحق به من عناء ودموع.

• • • •

(٢)

كانت علياء زوجة المرحوم خالد قد بدأت مرحلة جديدة من حياتها، إنها الآن حامل، ولكنها لم تتغير كثيرًا، بقيت صامتة وغامضة، تغور أسرار الدنيا في عينيها الواسعتين، لا يعرف أحد ما يجول في تلافيف عقلها، ثمة ابتسامة باهتة مرسومة على شفتيها الرقيقتين، لا أجد لها تفسيرًا، طالما ذكرتني بابتسامة "الموناليزا".

أكثر من مرة ألمح ماجد يحاول التقرب إليها أو مداعبتها، وحتى أنت يا أبي أرى في عينيك ما يعلن عن شغفك بها ورغبتك في امتلاكها، لقد رأيتها تشيح بوجهها عنك، في هذه الآونة كان وقتي موزعًا بين دراستي في الكلية وبين العمل في محل والدي لبيع الأقمشة، هذا الواقع كان يتعبني، إلا أنني وجدت فيه بعضًا من الراحة التي كنت بحاجة إليها، لأنه يبعدني عن جو البيت الذي بات يشكل الهم الكبير من بين كل ما أشعر به وأتألم منه.

ها هي والدتي تذوي وتنهار، ثم تتلاشى ببطئ، كانت تعاني بصمت، قالت لي إنها سترحل مطمئنة علي، غسلت يديها وجبينها بدموعي، لفظت أنفاسها بهدوء وعيناها تحدقان بي، ويداها تمسك بيدي، حزنت عليها بكل ما أوتيت من طاقة، مازالت صورتها الحبيبة لا تفارق خيالي، دفعني حزني وشعوري بضياع أثمن ما

في الوجود إلى الابتعاد – إلا لمامًا – عن أبي، لم أكن ألتقيه، لا أطيق التحدث معه، اعتبره المسؤول الأول عن عذاباتها وأحزانها ورحيلها المبكر.

تمر أيامي صامتة بطيئة، بدا لي البيت كأنه مقبرة، أحاول الهروب منه قدر ما أستطيع، لا أكاد أعود إلا في وقت متأخر كي لا أرى أحد أو أتحدث معه، انقطعت صلتي بالبيت، كان يداهمني شعور مريع بالغربة.

في هذا الجو المكفهر وضعت علياء ابنتها، لا أعرف من أسماها "خالدة"، كان عمي ماجد يحاول أن يكون أكثر قربًا من علياء، وكنت ألمح عليه سيماء الفرح والبهجة، حدست أنه يحضر نفسه لمرحلة جديدة، شهور قليلة مرت وأعلن رغبته في الزواج من علياء.

• • • •

(٣)

جرى كل شيء بهدوء وسرعة، بعيدًا عن أي مظهر من مظاهر الفرح المتعارف عليها في مثل هذه المناسبات، دخلت علياء ثانية حياة جديدة بنفس الهدوء والغموض، ثمة تساؤل يلح علي، إلى

أين تمضي بنا الحياة؟ لم أجد جوابًا لسؤالي هذا، يبدو أن أبديات الحياة أزلية فعلاً وسوف تستمر ما استمرت الحياة ذاتها.

مضيت في طريقي أدرس وأعمل في محل والدي الذي انقطع عن المجيء إليه منذ مدة طويلة، بدا منطويًا على نفسه، يحاول الابتعاد عنا جميعًا، كان جو البيت أكثر هدوءًا، وكانت علياء تقوم بدور سيدة البيت الحريصة على من فيه، ألمح في عينيها ما يثير في نفسي قلقًا وخوفًا مما ستأتي به الأيام القادمة.

مازلت وحيدًا، تمضي أيام عمري صامتة ساكنة، تحمل في ثناياها أصداء أحداث لا أستطيع التكهن بها والتخلص من هواجسها.. في مساء حزين كنت أطالع أخر صفحة من رواية أعيد قراءتها بين أوقات متباعدة، توقفت عند جملة تثير في أعماقي أسئلة كثيرة، يقول بطل الرواية المأزوم: "معذرة يا صديقي، كأننا لا نفهم حقائق الأماني إلا في أخريات العمر".
أتساءل بحرقة لماذا علينا ألا نفهم هذه الحقائق إلا في أخريات العمر؟ ولماذا لا نفهمها ونحن في عز الشباب أو بداية مرحلة الكهولة؟ لماذا أيها المأزوم؟ لماذا في أخريات العمر؟.

في تلك اللحظات الغارقة ما بين قلقي وتساؤلاتي المضنية فتحت باب غرفتي، رفعت رأسي، شخصت إليها، كانت تحمل بين يديها صينية مليئة بالفاكهة، وقفت صامتة وعيناها توزع نظرات تختلط

فيها الرقة والصرامة على كل جنبات الغرفة، ثم استقرت على واجهة المكتبة.

وقفت أواجهها، أخذت ما كان بين يديها وضعته على منضدة قريبة، تمتمت بالشكر، ثم فتحت عينيها على سعتهما، سلطت نظراتها المفترسة علي محاولة في ذات الوقت الاقتراب مني رويدًا رويدًا، إنها الآن تلامسني، تضع يديها فوق كتفي، أنفاسها الحارة تلهب وجودي، همست بصوت خلته كالفحيح:

- إلى متى ستبقى بعيدًا عنا يا سرمد؟

تأملت وجهها، كادت تأخذني المفاجأة بعيدًا، حاولت أن أسترد وبسرعة بعضًا من هدوئي، رأيت وجهها يربد كالبحر الهائج ثم يكتسي بحمرة عميقة، رفعت يديها عن كتفي، انسحبت إلى الخلف بهدوء وهي ما تزال تسلط علي جحيم نظراتها، انسابت أخيرًا من الغرفة وأغلقت الباب وراءها، امتلأ جو الغرفة بما تخلف من عطرها الأنثوي، نهضت ثانية كالممسوس، حدقت في الفراغ الذي أحاط بي ثم انفلت خارجًا من البيت.

راعتني سحنة والدي وهو يتفرس بي كأنني فارقته منذ دهور، عندما عدت إلى البيت في ساعة متأخرة من تلك الليلة كان كل شيء قد انتهى، قال لي أحدهم إن عمي ماجد قتل!! شهقت، اختنقت بحزن كثيف ملأ صدري، تحاملت على ألمي، دخلت البيت

أتأمل الوجوه بعيون متسائلة، ما الذي حدث؟ لماذا هذا البيت المنكود بالذات؟.

كما الحلم غادرنا عمي لاحقًا بأخيه خالد بعد مشاجرة بين أصدقاء، تدخل بينهم ليفضها بالتي هي أحسن لكنها كانت نهايته إذ أُصيب بطعنة سكين في جانبه الأيسر، لفظ أنفاسه الأخيرة بعدها قبل أن يصل إلى المستشفى.

• • • •

(٤)

يا للغرابة، من أنتِ؟! تساءلت بألم دفين كالعادة لم أجد جوابًا أو أجوبة شافية، تذكرت تلك الجملة التي قرأتها في الرواية، هل من المحتم علينا أن نبلغ من العمر أخرياته كي نفهم حقائق الحياة؟.

تلك إذن أبديات الحياة وأزلياتها التي لا تنتهي، تبقى مرافقة لأيامنا منذ البدء وحتى المستحيل الأخير، ها أنا أتأمل نفسي وما يحيط بي، أتساءل بحيرة ماذا أستطيع أن أفعل لإنقاذ ما تبقى من تاريخ هذا البيت؟ إن ذاكرتي لا تعي غير الألم، يبدو إنني أتهيأ لأسى جديد، إن والدي يضمحل يومًا بعد آخر.

ذات يوم حاولت أن أكون أفضل مما أنا عليه، شعرت إنني ابتسم، لقد نسي وجهي الفرح منذ زمن طويل، ربما لم تعد سماته تتقبله بسهولة ويسر، سأحاول مرة أخرى، يبدو أن أشياء كثيرة ستحدث، أهتف مأخوذاً، أيها الزمن القادم إنني أبحث عن طريق جديد.

٥ – ١٢ – ٢٠٠١

مختبر الحياة

- ادخل..

أدار المقبض بهدوء ثم دفع الباب بشيء من التردد، خلال الفرجة الضيقة وقف ينظر متأملاً الغرفة الواسعة بأجهزتها العديدة، وبأصوات الأجهزة التي تداخلت في سمعه كمنبهات العربات، تلك التي تطرق سمعه طيلة ساعات اليوم.

امتلأ أنفه بروائح مزعجة، شخصت عيناه إليها، كانت مشغولة تمامًا، تمسك بأنبوبة اختبار ترجها بين الحين والآخر، ثم تراقب حجم السائل لتدون بعد ذلك بعض الملاحظات على ورقة موضوعة على حافة المنضدة الطويلة، كمن أحست بوجود شخص ما على مقربة منها؛ التفتت ناحيته، كان قد تقدم ووقف وسط المسافة التي تفصل الباب عن موضعها أمام الأجهزة، اعتادت أن تقول لأي مراجع يقصد غرفتها بتودد وحنان:

- تفضل..

تقدم منها ووقف قبالتها، في هذه الآونة كان صوت الجهاز يملأ جو الغرفة الواسعة بأزيزه المزعج، قال بصوت خافت لين:

- مساء الخير..

ردت وهي مازالت منشغلة بعملها:

- مساء النور، أهلاً..

انداح صمت شفيف فرض عليها أن تدير رأسها ناحيته بسرعة، حدقت في الوجه الشاحب والعينين الصغيرتين اللامعتين، كان يبدو متعبًا فاجتاحتها موجة عطف غامرة، خاطبته:

- ألديك تحليل؟ هل من خدمة أقدمها لك؟

ظل صامتًا وعيناه تتجولان في أديم الوجه المبتسم، فتح أخيرًا فمه وأشار إلى كرسي قريب وقال برجاء:

- هل أستطيع الجلوس؟

بحماس واضح وهي تقرب الكرسي منه:

- بالتأكيد.. تفضل اجلس، هل أنت متعب؟

تساءلت وقد انهمر اهتمامها بالشخص الذي جلس أمامها، سألها قائلاً:

- ألم تعرفيني بعد؟

فاجأها السؤال، إلا أنها ردت عليه بهدوئها المعتاد بعد أن تفرست ثانية في الوجه الشاحب والعينين الشاخصتين نحوها:

- آسفة.. هل تعرفني؟

لأول مرة لمحت شبح ابتسامة ترتسم على الشفتين الرقيقتين، أزاحت بعض توتر أحاط بالوجه المتعب، أجابها متسائلاً:

- أعرفك! هيه.. وهل نسيتك يومًا يا دنيا؟!

سحبت كرسيًا أراحت جسدها الفتي عليه، خاطبته وشيء من القلق بدأ ينساب نحو أعماقها:

- أرجوك.. من أنت؟

رد بسرعة:

- أنا محمد.. محمد يا دنيا.. ألا تذكرينني؟!

توقف الجهاز بعد انتهاء الفترة الزمنية المقررة له، ساد صمت ثقيل لم يبدده سوى دقات خفيفة على باب الغرفة، قامت تفتحها، سمعها تقول:

- انتظر من فضلك.. إنني مشغولة.

ثم مخاطبة الجالس قبالتها:

- هل رأيت إنني لا أملك من وقتي شيئًا إنه للعمل فقط، فقل لي حاجتك.

استرد نشاطه، اعتدل في جلسته، قال بصوت أكثر دقة ووضوح:

- تعرفي علي أولاً ثم أقول لك حاجتي، أنا محمد بن رياض جاركم في حي القاهرة.

التمعت العينان السوداوان وانفرجت شيئًا فشيئًا أسارير الوجه الذي علته عتمة المفاجأة، ثم هتفت:

- محمد.. آه كيف حال الأهل والوالدة؟

أجابها بسرعة:

- رحمها الله.

ندت عنها آهة، تساءلت بألم واضح:

- متى؟

- منذ سنتين تقريبًا.

- والوالد، كيف حاله؟

رد بذات الصوت الهادئ وبنفس السرعة كأنه يريد أن ينهي هذا الموقف والتخلص منه:

- هو بخير.

وضعت يديها في حجرها وتمتمت:

- ياله من زمن، مضت الأيام بكل ما فيها من الطفولة والصبا، وها هو الشباب يخب بنا مسرعًا.

رفع يده ثم همس:

- الطفولة أجمل ما في العمر، حياة الإنسان الحقيقية في طفولته.

هزت رأسها موافقة على قوله، ثم سألته:

- كيف عرفت مكاني، وما الذي ذكبرك بنا؟

- تعبت كثيرًا حتى عرفت أنك تعملين في "مختبر الحياة"، نسكن الآن في حي الإعلام، بيننا مسافة كبيرة.

قالت مجادلة:

- أهلاً بك يا محمد، تذكرتك تمامًا، لم تكن تلعب مع الأولاد بسبب...

صمتت فجأة، لكنه أكمل:

- لقد أجريت عملية خطيرة في القلب تكللت بالنجاح، وها أنا بصحة جيدة كما ترين، كنت ممنوعًا من ممارسة أي فعالية، وكنت أراقب أقراني وهم يتقافزون في الساحة القريبة من بيوتنا، مازلت أحب لعبة كرة القدم، وكنت أتمنى أن أشاركهم اللعب، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

- أسعدتني زيارتك وكذلك تمتعك بالصحة، لكن قل لي، ماذا تعمل الآن؟

- لدي ورشة صياغة تدر علي ربحًا لا بأس به، إنني أعيش في حدود ما أستطيع.

قالت بحبور:

- جميل، لكن لم تقل لي ما الخدمة التي يمكن تقديمها لك؟

قال بسرعة:

- جئت أخطبك!

مرقت كلماته شاطرة خيالها بعنف لم تتوقعه، طفقت تحدق في عينيه الخجلتين ثم ارتفع صوت ضحكتها، ضحكة رقيقة كشفت

عن أسنانها البيضاء، دمعت عيناها فسحبت منديلاً ورقيًا مسحت به عينيها ووجهها، همست:

- لقد فاجأتني!

ارتفع صوته ثانية:

- كنتِ ومازلت ومنذ ذلك الصباح الذي خرجتِ فيه إلى مدرستك مع بعض زميلاتك، أقول لك منذ ذلك التاريخ، ولم أكن قد سجلت بعد في المدرسة تعلقت بك، بل أقول أحببتك، وها أنا أمامك، لقد أكملت دراستي في ثانوية التجارة، وكذلك خدمة العلم، وأعمل بجد لكي أكون جديرًا بك.

تساءلت:

- وما هذا الذي تلبسه؟ الشباب يلبسون البدلات الحديثة والقمصان الملونة، وأنت ترتدي هذا الثوب القصير، لماذا؟

- هذا جزء من خياراتي.

ثم عابثته قائلة ووجهها ينطق بالسعادة:

- لكني أكبر منك سنًا..

- لا أهمية لذلك، ولا أعيره أي اهتمام.

- محمد، اسمع يا عزيزي.. إنني مخطوبة لإنسان أحبه، وهو الآن ينتظرني خلف الباب، وأعتقد أن انتظاره قد طال كثيرًا.

فتح فمه مدهوشاً، تألقت عيناه بلمعان خاطف أخاذ، احمر وجهه طارداً بقايا الشحوب الذي ران عليه، هز رأسه هزات عنيفة ثم وقف وعيناه مسمرتان في الوجه المبتسم، نهضت لتقف أمامه، وضعت يدها على كتفه وقالت بصوت يقطر حناناً وعذوبة:

- محمد، أرجو أن تكون على ما يرام.

أدار رأسه ناحية الباب، مسح وجهه بيديه ثم التفت إليها وقال بصوت متهدج:

- مبروك.. وليساعدني الله.

ثم انفلت خارجاً من الغرفة مخلفاً وراءه شيئاً من الوجوم والصمت والذكريات.

آيار - ١٩٩٧

الفجر ثانية

وقفت تتفرس في قسمات الوجه الذي ارتسم أمامها على صفحة المرآة كما لو كانت تراه لأول مرة، هالها المنظر وملأ صدرها ضيقًا، أحقًا ما ترى؟! أهذا هو الوجه الذي رافقها كل هذه السنوات، والعينان الكامدتان والمحاطتان بهالات داكنة، والفم الذي انكمشت شفتاه وبهت لونهما، والسحنة الجافة المائلة إلى صفرة خفيفة كأنها بقايا مرض ألمَّ بها منذ زمن بعيد، ارتدت إلى الوراء قليلاً ثم مضت تجاه النافذة، أزاحت ستارتها فانهمر ضوء الضحى يغمر الصالة الواسعة، تجولت ببصرها في الحديقة التي أهملت منذ متى...؟ لم تعد تعرف الوقت، منذ غادر الأولاد كل إلى بيته، وابنتها الوحيدة انتقلت إلى بيتها الجديد..

كانت زياراتهم لا تُشفي غليلها ولا تُطفئ شوقًا إليهم، وإبراهيم.. هذا الذي يخرج مع غبش الفجر ولا يعود إلا في أخريات الليل، حيث يكون الصمت قد لاكها أو لاكته، والأحزان قد رفعت رايتها عالية بوجهها.. لو ترتاح قليلاً من هذا السعير الذي يحرق كيانها..

بالأمس هطلت عليها أمطار السعادة، ملأت أعماقها فرحًا غامرًا، جاءها صوت رجاء: ماما.. ثم استرسلت.. ضحكت.. بكت.. متى

تأتي؟ لا أدري، مازن في عمله، والطفل يأخذ وقتي.. سعيدة أنتِ يا عزيزتي.. تلك أمنيتي.. إبراهيم أين أنت؟ ألا تذكر..؟ كيف انطفأت شمس حبنا؟ لقد كنا نراه في خضرة الأشجار المزدهرة تحت أشعة الشمس، في نتف الغيوم المسافرة عبر الفضاء في ضفاف النهر، حيث المياه تتراقص حول الضفاف.

"عيناك مدينتي.. واحتي.. وجهك إشراقة العمر الذي حلمت به طويلاً، لقد صرت شاعرًا يا حبيبتي، كم نسجت لكِ كلمات أودعتها كل مشاعري، أنتِ تملكين كل مساحة العمر يا لؤلؤتي النادرة".

أمدتها الذكريات بدفق جديد للحياة.. فدخلت الغرف الواحدة تلو الأخرى، أزاحت ستائر الشبابيك.. رتبت بعض الأغطية ثم فتحت الباب على مصراعيه وخرجت إلى الحديقة، كانت مهملة، نمت أشجارها بغير انتظام وامتلأت أرضها بالأعشاب.. ثمة شجيرات ورد هنا في هذه الساقية أو تلك، همست: "لابد من عمل، هذه الحديقة أهملت كما أهملت نفسي، هي بحاجة لمن يرعاها، كما أنا بحاجة لمن يرعاني، متى يذكرني بأني مازلت لديه أمنية غالية يحرص عليها.. لكن.. أين أنت يا إبراهيم؟!".

منذ زمن يبدو الآن بعيدًا فقدت رقتك وحنانك، فقدت اهتمامك بي، سأكسر قيود الزمن وأعود كما كنت، سأجعلك تهتم بي كما كنت وأكثر، بل أنت بحاجة إليَّ أكثر من أي وقت مضى، لن أدع وحوش الظنون تفعل ما تريد، هذا البيت الذي تراكم الصمت في

أرجائه ستعود إليه الحياة نضرة متدفقة، أما وجهه الذي تراكمت عليه السنين فأنا كفيلة به.

مازالت في الأعماق بقية من حياة، سأسمعك صوتي وهو يحمل إليك حفيف الزهور عندما تداعبها أنسام الفجر، سأزيل الشحوب من رقعة حياتي، وابدأ من جديد، فالوقت يأخذني ولكني مصممة على أن أمد يدي لكي ألقاك في فسحة العمر المتبقية لي ولك، الآن أفهم لماذا صرت بعيدًا عني..

لقد أهملتك كما أهملت نفسي، أعطيت الكثير للأولاد ونسيتك، وها هم يتفرقون بعد أن بلغوا سن الاكتمال، ونسيت نفسي، أهملت المرأة في، ولم أكن أعلم أنك تريدني كما تود أن أكون، كنت شهقة في رئتيك، وأغنية على طرف لسانك، لكنك أهملتني، لم أكن أشعر بمعاناتك، كان صمتك كبيرًا، أطوف في جنباته وأتساءل تُرى لماذا لا يكلمني، لماذا لا يقول شيئًا يريحني، وكنت تقول أشياء كثيرة.. إبراهيم جرفتني الأيام دون وعي مني، كان عليك أن تنبهني إلى.. إلى ماذا؟ رباه.. أكاد أختنق.. تذكرت أنها لم تفطر، فعادت مسرعة إلى داخل البيت..

وقفت أمام المرآة ثانية.. رأت وجهها وقد تغيرت سماته، أشرق في العينين نور رضى، وهذا الغبار الذي كانت تراه على أديم الوجه زال، أو كاد يزول، دخلت عالمًا جديدًا ازدهر الأمل في جنباته.. وذابت الثلوج على قممه، فصارت جداولاً أينعت حقولاً

وبساتين مملوءة بالثمار، ولكن مهلاً أيتها المخدوعة.. كيف يمضي هذا الرجل أوقاته بعد العمل، تلك فترة طويلة.. طويلة جدًا.. وأية امرأة نام في حضنها، بل كم عدد النساء اللائي عرفهن، تلك إذن هي دائرة الرعب التي ينبغي أن أعرف زواياها، وأطلع على أسرارها.

لم يهمل نفسه في الآونة الأخيرة، كنت أحس برجولته تتدفق من عينيه، من هي التي تنتظر من أجلها وتعتني بمظهرك لتسعدها، من تلك المرأة التي يمكن أن تعوضك عني، قل لي يا إبراهيم، اصدقني..

تحولت الملامح إلى رماد، رأت الحجرات باكيات والبيت قبو مظلم، المرارة تزداد في فمها، والهواجس تكبر في صدرها وتصعد إلى عقلها لتطوقه وتوقف حركة نشاطه.. لقد نزت في أعماقها كل آبار الهزيمة والخذلان وفقدان الثقة بالنفس، أنا جسر الآلام.. عبر علي ودهسني دون رحمة، سأحاول أن أنام، أتعبتني الأفكار والشكوك، انتشر رمادها في أنحاء جسمي فحولّه إلى هشيم، هذه الجدران أكلت عمري، ملساء كحية.. مخيفة كفراغ، وهذا السرير الذي رافقني في رحلة العمر مازال يصر تحتي، وشتان.. شتان بين الصريرين، انطفأ اللهب في العروق وضاعت وشوشة السعادة بين دهاليز الشكوك والعتمة التي ملأت الروح.. تُرى هل أستطيع أن أنام؟.

لشد ما أنا مرهقة، تلك الأحلام التي أراها تعاودني.. تشد أعصابي.. ترهقني، سأترك كل شيء على ما هو عليه، يا أحضان النوم الدافئة هلا غمرتني بفيض من الدفء، لكني أستسلم لسلطانك كما تستسلم الموجة للشاطئ..

فتحت عينيها.. شعرت بضوء غرفتها.. ثمة حركة هنا، وخطوات هناك، لاح لها المساء، رأت البيت وقد ملأته أنوار المصابيح، وضعت يديها على رأسها، مالت قليلاً إلى الأمام، سمعت صوت يدندن أغنية نسيت مطلعها، ثم دخل الحجرة وفي يده فنجان قهوة، قدمه إليها مبتسمًا وقال:

- تفضلي..

احتوت وجهه بعينيها.. تحركت في أعماقها شهوة الحياة قوية جامحة، هتفت بحنان:

- إبراهيم..

وضع يده على فمها.. فبللت أصابعه دموعها التي غمرت أديم الوجه الذي بدا وكأن فجره آذن بالبزوغ ثانية.

٨ – ١٢- ١٩٨٨

الشارع.. ومصباح النيون

مصابيح النيون تتلألأ أمام ناظريه، تملأ الشارع نورًا أخضر، تخبو لحظة وتعود تتوهج ثانية مواكبة أفكاره، كأن نورها ينبعث من توهج أعماقه وجموح خياله، هناك متسع من الوقت سيقضيه مع نفسه، كيف حدث هذا؟ ضعف أمام نفسه، تقاذفته أفكار شتى، سبح في حضنها، كانت أمواج أفكاره تطويه بقسوة كساعات الشوق والبعد، امتدت دروب اليأس والسأم في أعماقه بلا نهاية، دروب ضاع في منعطفاتها، لم يعد يعرف نفسه، يذهب أو لا يذهب؟.

إنه مدعو.. والماضي كله يتجمع في لحظات تهزه بعنف، كأنها تخلقه ثانية، والخيال مازال يعبث به، ثوب الزفاف الأبيض الطويل، والعينان الواسعتان المضيئتان تمتلئان تشفيًا، وابتسامة سخرية ينطق بها الوجه كله وتمد إليه يدًا باردة، باردة كالشتاء، كالموت، لا بل كنهاية علاقتهما، ويحتضن ذلك الصقيع، طالما احتضن تلك اليد من قبل، تذكر سخونتها.. هي الحياة بنبضها، يرجع إذن، ما فائدة ما مضى وما سيأتي، لا شيء يعود، لا شيء مضى ثم يعود.

هل يريد أن يرى جنازة الماضي تمر أمام عينيه، ما الشيء الذي يغريه أن يرى جزءًا من نفسه يشيع أمامه وهو يبتسم، الابتسامة ضرورة، إنه مدعو إلى حفل زفاف والإنسان لا يملك في تلك

اللحظات إلا أن يبتسم، بالرغم من أصابع الموت التي تحفر في ذاته قبورًا ثلاث؛ لتواري في كل حفرة منها حرفًا من حروف اسمها الثلاثة.. أمل والليل والآه.. وعيناها.. وذكريات ظنها خبت كنجم ضاع في سماء سحيقة ودروب اليأس مازالت تمتد بلا نهاية وهتاف كالحريق ينداح بلا انقطاع..

وتمتد يده لجبهته يلمسها؛ فيحسها باردة، ويهمس كالمأخوذ: "كم أضعت في المسير المر من حلو الأماني حين كان الطريق يقتات على ألمي وعذابي، حين كنت أفتش عن الحقيقة في تلك الدروب التي ملأها الليل ومن بين كل ذلك وجدتها.. وجدتها في دنيا الظلام، فكانت شمس وكانت حقيقتي، وجدت فيها ذاتي وأماني داستها أقدام الحياة بلا رحمة تجسدت في نظراتها، كانت نداء ملأ صدري آمالاً كبيرة، كانت طريقًا نيرًا امتد في أعماقي كالحياة.. لكنها أخطأت.. تمردت عليه، حاولت أن تسحق أعز ما يملكه رجل.. كرامته..

تعلم كيف يثور في الوقت المناسب، وكيف ينتصر بالرغم من كل شيء، دفن الماضي كله وعاش أيامًا بلا ذكرى، بلا آه، حتى بلا ليل، وظن أنه انتصر بسهولة، وطالما هتف يا للإنسان.. هل يمكن أن يكون قويًا ذا عزم ينال التاريخ ليبنه من جديد، مسكين.. كان كمن اخترقت جسمه رصاصة طائشة، لم يشعر بالألم لأول وهلة، لكن الجرح بدأ يكبر، وبدأ ينز، وعواصف الألم تعوي في أعماقه كذئاب الليل..

لقد بدأ بداية سيئة.. يا لها من غفوة، أيام السراب والخيال مضت، يالها من رياح مجنونة، المعركة بدأت متأخرة بعض الشيء، عليه أن يخوضها، ستختزل من عمره ما تشاء، لكنه موقن من النصر والكرامة والرجولة.. لا.. لا شيء يعادلهم، ما قيمة التضحية والأفكار والإنسان بلا كرامة وبلا حدود.

مصابيح النيون تكبر فجأة في عينيه، مد يده ثانية ليتحسس وجهه فوجده رطبًا باردًا.. أحس بحيوية فاترة وموجات حياة خائفة تسري في عروقه، نبض باهت في دنيا كالدوامة، همس.. ذلك ضروري، سأودع بعضًا من نفسي لأضيف شيئًا إليها حتى وإن كان خيالاً أو أملاً، المهم ألا يشعر أني خسرت كل شيء، الحياة نفسها أكثر من حياة، أكثر من شوق ومن لذة ومن ألم، قد يعيد الإنسان نفسه أحيانًا كما يريد، لكنها على كل حال مهمة صعبة، ليس هناك مبرر لعدم ذهابي..

لاح له البيت.. وتذكر أنه مازال يجهل كل شيء عن إنسانها الآخر الجديد، لم يخطر بباله مرة، كأن الأمر بالنسبة له منتهيًا، لقد تعود أن يفكر بها ليضع نفسه بجانبها، وتذكر الشارع ومصابيح النيون وابتسم، خيل إليه أنه الشارع وهي مصباح النيون، تباطأت خطواته، ثم توقف قليلاً واستدار راجعًا من حيث أتى، وصورة الشارع والمصباح تملأ كل خياله لتثير فيه آمالاً جديدة.

٢٩ – ٦ –١٩٦٦

إنـه المطـر

خلال زجاجتي نظارته الطبية؛ راقبها باهتمام مشوب بالقلق والحذر، انزلقت نظراته عليها كما لو كان يراها لأول مرة، سرت في أغواره مشاعر شتى، تخيلها تتحول إلى غيمة معتمة تُغطي سماء روحه المعذبة، وتسكن أقصى زوايا نفسه.

كانت منشغلة عنه، منصرفة لعملها، تنحني لتلصق قرص العجين داخل التنور الملتهب، وجهها يتألق ويتوهج مع الحرارة المتصاعدة من فتحة التنور، تأخذ قطعة أخرى تفرشها ثم تزرعها داخل الفوهة المتأججة والتي مازالت تطلب المزيد، تنحني ثانية تسحب رغيفًا ناضجًا، عيناها تتألقان وتكونان مع الوجه الساحر صورة تفجر في أعماقه خوف الدنيا بأجمعه، أما هذا الجسم اللدن الذي لم يفقد حيويته طيلة السنوات الماضية والتي تسربت من عالمه كما الخيال؛ فقد عرف يومًا كل أسراره وأذاب في رحابه دفق الشباب وهوسه، والذي يبدو له الآن حلمًا يحاول التخلص من تأثيراته المرعبة عليه، أية كلمات احتاجها لكي أقول لك ما أشعر به، أعرف أنك على علم بما أعانيه، ولكن غموضك يقتلني، إنه العذاب الذي يعبث بي ويدمرني، وأقسى من كل ذلك؛ تلك الأيام التي أمضيتها في ذلك المشفى الكريه، بعد أن دهستني سيارة

وكادت أن تودي بحياتي، عطلت أفضل وأجمل ما في وجودي، أفقدتني قدرتي على ممارسة حقي الطبيعي كرجل مثل بقية الرجال، تحولت بعد تلك الحادث إلى شيء أهملته الحياة، حاولت مرارًا أن أتسلق أحزاني صاعدًا إلى سماوات جديدة، أطل منها على أفق جديد، ابدأ رحلتي ثانية منه، لكنني كنت أحبط في نهاية كل محاولة.

ليس هناك في كل هذه الدنيا ما يستطيع أن يعوضني عنك، أنت سمائي وأنت واحتي، تُرى أتشعرين بعذاباتي كما أشعر بها أيتها السيدة التي ظلمتها معي؟ نبهه صوتها وهي ترمي إليه رغيفًا حارًا:

- هاك.. أمسك.

رفع يديه المعروقتين وأمسك برغيف الخبز، وضعه فوق الصحيفة التي كان يتشاغل بقراءتها، رد هامسًا:

- شكرًا..

- أعرف أنك تحب الخبز الحار.

ابتسم ابتسامة راضية ثم أردف:

- مضى زمن السعادة الحقيقية.

أجابته وهي منشغلة بعملها:

- يومًا ما سنعوض كل ما فات، المهم صحتك.

أخذ قطعة من الرغيف، وضعها في فمه، رآها تهش بعض دجاجات اقتربت منها، قالت بلا اهتمام:

- ما الأخبار هذا اليوم؟

أجابها وهو يرفع الصحيفة أمام عينيه قائلاً:

- أخبار الانتفاضة مستمرة، (صمت قليلاً ثم أكمل) الزوراء يتغلب على القوة الجوية بهدفين نظيفين.

رفعت رأسها، لاح بريق آخاذ في العينين المتوهجتين، انفرجت أسارير وجهها ثم انطلقت في ضحكة عالية، قال مأخوذاً بسحرها:

- إنك تسعديني بهذا الفرح الغامر الذي يبدو عليك، اللهم زد وبارك.

- ألا تعلم أنني أشجع الزوراء، يعني أنا زورائية، وأنت من تشجع؟.

فاجأه السؤال، لم يدر كيف يرد عليها، لم يهتم يومًا بهذا النوع من الرياضة، كان الكتاب عالمه الذي أحبه منذ صغره، قال مداعبًا:

- أشجعك أنت، أنت رياضتي وفرحتي وسعادتي.

ارتسم على صفحة وجهها المتورد وجوم مفاجئ، أبعدت نظراتها عنه ثم عادت ثانية لعملها.. كمن أصابه مس من الجنون؛ انفجرت كل البراكين الخامدة في أعماقه، استحال إلى لهب مدمر، نشر الصحيفة أمامه، غطى بها نصفه الأعلى كي لا تنتبه لما يعتمل في

عالمه المتفجر الآن، هتفت أعماقه بشوق مجنون، تحدثي لي يا امرأة.. مازلت بحاجة إلى شموسك كي تذيب جليد روحي، وتظهر لك وجهي القديم بكل ألقه وعنفوانه، وجهي القديم المشرق بحبك، وجهي الذي رسمت على أديمه كل سنوات عمرك بآمالها الكبيرة وأمنياتها المتألقة، كلماتك التي لم أنس شيئًا منها وأنا في قمة ألمي، عندما يتحول العالم في لحظات إلى هشيم وعدم، كنت أسمعهم يقولون إن الصدمة عنيفة، لقد قاسى كثيرًا، إنه لا يستطيع الكلام، يحتاج إلى راحة، أنتم لا تعرفون شيئًا عن عواصف ألم حادة، كانت تتسرب إلى أعماقي، تسلبني القوة والإرادة وتغتال ذلك الرجل الذي كنته في يوم ما. جرس الهاتف يقطع تداعياته، ينهض متثاقلاً ويتجه إلى داخل البيت، دقائق قليلة عاد بعدها إلى كرسيه، لم تسأله عن الشخص الذي هاتفه، إلا أنه بادر إلى القول:

- إنها طيبة، تقول إنها ستتأخر لأنها ستذهب مع زميلاتها لزيارة صديقة مريضة.

تساءل بعد فترة صمت قصيرة:

- ألم ينتهي عذابك بعد؟

قالت بحيوية:

- لم تبق سوى هذه.

وانحنت تلصق قرص العجين على سطح التنور الداخلي، سمعته يقول وكأنه ينشج:

- إنني متعب، إنني هشيم.

استدارت ثم تقدمت نحوه، وضعت وجهه بين كفيها الدافئين، تشمم عن قرب رائحة جسدها بعمق، وضع رأسه على صدرها، سمعته ينتحب، خاطبته بقوة:

- لا أحب هذا الضعف فيك، اصمد، لقد عرفتك دائمًا قويًا ومتجاوزًا...

قاطعها:

- إنني أبكي من أجلك يا سلوى، أعرف مدى معاناتك و...

ثانية تقاطعه قائلة:

- لا تفعل هذا أبدًا، ثق.. سيكون كل شيء على ما يرام، ولكن مع الصبر والأمل والتصميم، ثم لم تقل لي.. ماذا أخبرك الطبيب؟.

- قال إنها مسألة وقت، ونصحني بتناول الأدوية التي وصفها لي، اتعبتك كثيرًا، ليتني مت.

- أرجوك.. كف عن كل هذا، أنا على ثقة من أنك ستكون على ما يرام تمامًا.

عادت ثانية إلى تنورها، جمعت أرغفة الخبز ووضعتها في السلة، ثم مضت إلى داخل البيت. ظل ساكنًا في جلسته يراقب خضرة

الحديقة وأشجارها التي بدأت تورق من جديد، اجتاحته موجة فرح طاغية، إنها الحياة تتفجر من جديد في شرايين الكون كله، هتف بفرح الأطفال:

- إنه المطر، إنه المطر.

انفلت إلى وسط الحديقة فاتحًا ذراعيه، أسلم نفسه إلى القطرات التي بدأت تنهمر عليه بلا انقطاع.

١٠ شباط ٢٠٠٢

عُرس الروح

(١)

– ماما.. إني ضجرة.. ماذا أفعل؟

– اخرجي يا عزيزتي، تفسحي في الحديقة، اقرأي أي شيء.. تصفحي المجلات الجديدة التي أرسلتها لك رنا.

– لم تعد هذه الأشياء تسليني.. أكاد أختنق.

– إذن خذي السيارة وتجولي كيفما تريدين.

– هل تأتين معي؟

– لا يا عزيزتي.. لدي أشغال كثيرة، فأعمال البيت كما تعلمين لا تنتهي.

– إذن لن أخرج.

أطلقت والدتها ضحكة قصيرة.. ثم استمرت قائلة وعيناها تطرفان بسرعة:

– آه.. أعلم ماذا تريدين.. ولكن ما العمل؟ من أين آتيك بالعزيز.. عليك بالصبر، عشرة أيام ليست طويلة على كل حال..

– أخبار الجبهة تقلقني.. والمعارك محتدمة..

- دعي قلقك جانبًا، إنه شجاع وتعلمين كيف كان يتخلص من المآزق.

- في المرات السابقة وأثناء اشتداد المعارك كان يهاتفني، أما الآن..

قاطعتها والدتها:

- قد لا يستطيع.. القتال مستمر منذ أسبوع ونحن لا نعرف ظروفه..

- هذه المرة لا أحس بالراحة.. ثمة شعور يطاردني منذ ليلة أمس، يهمس في أعماقي، علاء في خطر..

- أنتِ تتوهمين أشياء لا وجود لها، وليس جديدًا عليك ما تحسينه الآن، سوف يأتيك كما في المرات السابقة سالمًا إن شاء الله.

غمغمت بيأس وصوتها يختنق بكلماتها، وكأنها تحادث نفسها:

- لا أعتقد.. متى تنتهي الحرب يا إلهي..

ظنت أن والدتها لم تسمعها فأجابتها مسرعة:

- لكل شيء نهاية.. وسوف تنتهي في يوم ما..

حاولت أن تغير مجرى الحديث فسألتها برقة:

- ألا تزورين أمال؟

- لا.. أريد أن أتمشى وحيدة، سأطرق الشوارع دون هدف كالمشردة..

أجابتها مبتسمة:

- والله زمان.. لقد أنستنا السيارات لذة المشي.

قالت بلا اهتمام:

- أنا خارجة..

سمعت صوت والدتها يلاحقها:

- لا تتأخري كثيرًا يا لمى.

• • • •

(٢)

العاشرة صباحًا..

أيام آذار الأخيرة غاية في الجمال، والصباح مترع بالشمس والهواء العذب، خطفت نظرة أخيرة شملت الحديقة بأزهارها الملونة وأصصها الكثيرة قبل أن تضع قدميها خارج باب البيت الفخم، أنيقة.. حالمة.. عيناها تجوسان الطريق بغير هدف، الأيام تمضي من بين يديها كحبات رمل تنثرها ريح عاتية، وعلاء.. أين هو الآن؟.

تمنت لو عاد بها العمر إلى سنوات الدراسة.. أيام الجامعة والطموحات المشرقة المترعة بالثقة والبهجة والآمال الكبيرة، هناك تعرفته وأحبته وتعلقت به، أحست بغصة مفاجئة، انحرفت

إلى يسار الشارع حيث المحلات الكبيرة، ابتسمت رغمًا عنها عندما بدأت تقترب من محل كبير "للموبيليا" كانت تزوره مع علاء ليتفقا مع صاحبه على عمل الأثاث اللازم لبيت المستقبل، اختلفا بشأن اللون، كانت تريد الفراش مع الستائر خضراء بلون الربيع، وكان يريده أزرقًا بلون السماء.

تجاوزت المحل.. واجهها محل كبير للتسجيلات، وقفت أمام بابه الأنيق، من خلال الواجهة الزجاجية الكبيرة تفرست عيناها في صور المطربين والمطربات، ملأ سمعها صوت يغني بألم هادئ "سألني الليل"، أثارتها الأغنية، تذكرت حب علاء لهذا اللحن الذي كان يردده أثناء تجوالهما، دخلت المحل، ابتاعت الشريط ووضعته في حقيبتها، ثم ضاعت في الشارع ثانية.

• • • •

(٣)

الساعة الحادية عشرة والنصف.. اليوم لا يريد أن ينتهي، والساعات تتساقط بطيئة حد العذاب ممتزجة بمشاعرها المفعمة بالقلق والخوف..

رفعت بصرها.. رأت غيومًا داكنة بدأت تتراكم، احتجبت الشمس، ثم بدأ الجو ينذر بالمطر، هبت ريح تحمل شيئًا من برودة آذار.. أنعشتها بعض قطرات مطر انهمرت على وجهها فهشت لها، ارتفعت حرارة مشاعرها، تمنت لو تعود فتجده أمامها كما حدث في مرات سابقة.

انهمر المطر بغزارة، فتحولت إلى رصيف قريب، وقفت تحت مظلة أحد المحلات تحدق بالمطر الذي بدأ يسح من حافاتها بتتابع جميل ارتاحت له. شملت الشارع بنظرة متأنية، رأت عمالاً يحفرون جانبًا من الطريق، والسيارات تمر مسرعة مغسولة بماء السماء.

أيقظها صوت شاب أزعجها بكلمات قاسية، حدقت في وجوه المارة، استوطنها حزن متوحش، همست: "لست الحزينة الوحيدة في هذا العالم!". .

• • • •

(٤)

خفت وطأة المطر، انقطع فجأة كما بدأ.. بدأ شعاع الشمس ينتشر ثانية، تركت مكانها متثاقلة، قررت أن ترجع إلى البيت..

استعادت في خيالها أول لقاء لها مع علاء في ملعب كرة السلة في الجامعة، كان أبرز اللاعبين في الفريق، أعجبت به، تلاقت العيون، ثم انصرفا معًا، وتتابعت اللقاءات، امتلأت روحها بالحزن، هجمت عليها الكآبة، تحول كل شيء لديها إلى رماد، أغرقتها خيالات متوحشة قاسية، افترستها دون رحمة، تمنت لو بينها وبين البيت خطوة واحدة، أسرعت.. اشتاقت إلى كلمات كان قد كتبها إليها، استرجعتها مرات عديدة.

دلفت إلى داخل البيت مسرعة.. أغلقت عيناها ثم فتحتهما، وجدت جو البيت معتمًا كئيبًا، والديها يلفهما صمت ثقيل، خمنت في لحظات كل شيء، تداعت في ذهنها كلماته، أشرق وجهه أمامها مبتسمًا، شاركته كلماته، ارتفع صوتاهما في نداء ملتاع يتسابق مع انهمار مشاعرهما المتوحدة حد التلاشي.

أمامك أتعرى حتى النخاع

أفخر بنقائصي..

أجيز لنفسي الموت مبتسمًا

أيتها الصغيرة الفارعة أتوق إليك..

أصير نسمة تملأ رئتيك..

أزرع فيك روحي أزاهير ملونة

أتوج رأسك بألق الكبرياء..

بدم الشهداء..

أجوس خلال ليلك القصير

كل مجاهل العالم

أزرع فيك ثم أنمو

وأعطي ما تعطيه غابة

فانظري وجهي المسيح

إنه عرس الروح بعد ليل الجراح..

شباط ١٩٨٦

الطريـق

تعبت عيناه.. ومعها تعب عقله، لم يعد هناك ما يشغله إلا هي.. هي أينما كانت؛ في شارع.. في حديقة.. في الكلية التي يدرس فيها، اللهفة ترسم أبعاد رغبة عنيفة تتوسد عينيه، ووجهه تتجسد فيه حيرة عميقة كأنها جزء من الوجه نفسه، وقدماه مازالتا تدقان الطرقات ترسمان خطوط الإنسان الضائع، نهم إليها.. جموح في الرغبة كالنار تلسع شرايينه، فيتفجر فيها ألف نداء.. سأل صديقه وعيناه تطاردان ساقين من بعيد:

– قل لي.. ما الذي أفعله، هذا الحريق الذي يشب في أعماقي متى ينتهي، الصيف في أوله، ومواسم الفتنة لم تكشف كل أوراقها بعد، مازال هناك الكثير، وأنا.. أنت تعرف كم أنا تعب، ومع هذا لا أرتوي، كأن عطشًا قديمًا كالمرض يرقد في جسمي، عطش أحسه كل ثانية في عقلي وقلبي.. المرأة يا عزيزي..

يتوقف ثم يضحك، ويعود ثانية لحديثه:

– المرأة.. أحس بحاجتي إليها.. لا ليست حاجة وحسب، إنها ضرورة.. وأكثر من ذلك أيضًا.. أريد أن أسفح نفسي فيها، أريد أن أتلاشى في عالمها، لا يكفيني ما أحصل عليه..

ينظر إلى صديقه بعينين حزينتين ويجده يبتسم، وهو يعرف أن صديقه قلما يبتسم، همس:

- تضحك.. لما؟

فوجئ بابتسامة صديقه تكبر، وهو ينظر إلى الطريق كل ما فيه، ويطول الصمت ويرقد بهدوء في ذاتيهما.. وتتلاشى الابتسامة ببطء، ليبدأ حديثه بصوت خافت كأنه يناجي روحًا مجهولة :

- يا صديقي.. لم نكن بالأمس طلاب ضياع، كانت لنا آمال، وكان لنا طريق، وكانت لنا أفكار، والآن.. أقفرت النفس، صارت أرضًا جرداء بحاجة لمن يرويها لتنبت عشبًا لا يعيش طويلاً، أفكارنا هذه أعشاب يابسة تتكسر عند أول نسمة تهب عليها، لا تقوى على الوقوف، نحن بحاجة للماء لكي ننبت هذا النوع من الأفكار التي تشبه ذلك العشب المتيبس لأننا أضعنا الطريق، وكذلك الأثر الذي يوصلنا إليه، كل ما حولنا لا يستحق الاهتمام، حتى نحن متنا ثم نبتنا ثانية، انفصلنا عن ماضينا، انقطعت سبل الرؤيا الصحيحة لدينا، غلفنا وهم يتكثف ساعة إثر أخرى ليصبح ضبابًا أسود يملأ الكون صورًا شوهاء لمستقبل لا نعرف عنه شيئًا..

عبث حياتنا.. عبث لا طائل منه، ليس فينا من يعرف الطريق ثانية إلى الماضي، ضاع الطريق في أعماقنا، خلقنا ثانية لكننا مسوخ، لا تصلح إلا لزرع العبث واللامبالاة في الدنيا، مسوخ لها واجب واحد، هو البحث عن الأشياء التي لا تصلح حتى لأن تكون حياة أخرى قد نحلم بها لطول ما عبث بنا الخيال، وشطت بنا عاطفة طفولية ساذجة..

قاطعة صديقه على عجل:

– أناس.. مسوخ.. عبث.. أقدار ضائعة، مع هذا ليس هناك ما هو أكثر جمالاً من المرأة.. هي الطريق والأفكار والآمال..

التفت إليه وفي عينيه عتاب قائلاً:

– كنت في سفر مع نفسي.. لم أكن أتحدث إليك.. لست راضيًا عنها، نفسي عذبتني، وبالمقابل أيضًا أنا عذبتها، نفسي لعنة، وكنت أنا لعنة ماتت وشيعتها، ومع هذا فأنا أنتقدها، ولطالما هتفت بها أفيقي أيتها النفس التي ماتت، أفيقي.. بلا جدوى، كأي صوت يضيع في تجاويف الحياة، ضاع صوتي، مات صداه، ومازلت وحيدًا مع اللاشيء، أنا الآن لا شيء، ومع هذا فأنا أبحث عنها من جديد، عن نفس الطريق الذي أوصلني مرة إليها...

قاطعه مرة أخرى:

– لن تجد طريقًا أفضل من طريق المرأة..

رجع ثانية يتحدث بصوت أجش كأن رغبة للبكاء لازمته:

– ذلك طريقك.. وجدته من خلال نفس تلفظ لها ما تبقى من حياة، أما أنا.. فلابد لي أن أجد الأثر ثانية، ومع هذا فأنا خائف أن أظل تائهًا، أخشى أن تحطم الأمواج زورقي قبل أن يصل.

– لماذا لا تحب؟

– ثانية تعود إلى الأثر الذي يبدو بارزًا في كل الأوقات، لم أكن أفتش عن هذا الأثر.. إنه موجود، وباستطاعتي أن أقتفيه، ولكن أنا جدار.. جدار أصم إلى أن أجد الأثر ثانية الذي يوصلني إلى نفسي.. هل هناك ثمة طريق إليها؟!

بحبور صاح صديقه:

- آه.. نفس الطريق الذي أسلكه.. أو أي طريق يصلك إلى المرأة.. ستجد هناك نفسك حية طرية جميلة تهفو إليها.. ستجد كل ما كنت محرومًا منه فينتظرك بالقرب منها.. ودعنا نسير في الطريق.. لقد وجدناه.

- محال يا صديقي.. ليس هو الطريق الذي أريد، إنني أبحث عن طريق يوصلني إلى الشمس..!

يقاطعه وهو يضحك:

- لكي تحترق؟!

بجدية عميقة:

- لكي أشعر بخيوط النور تنتشر في الكون الذي ملأه الضباب سوادًا، لكي تحرق خيوط الشمس بيوت العنكبوت، لكي نرى وجودنا من خلال نورها، لنتأكد بأننا أحياء، مازلنا نعيش..

وقفا في مكان يرقبان الشمس عند مغيبها.. صاح به:

- حتى شمسك تتهاوى..!

رد قائلاً بهدوء وثقة:

- إنها في رحلة.. ستعود غدًا مع الفجر..

١٠-٦- ١٩٦٦

شيء اسمه الماضي

جذبتني المفاجأة.. أدخلتني في تضاعيف ذلك العالم الذي بدأت مشاعري تتخفف منه شيئًا فشيئًا، لاحت لي صورتها، بابتسامتها العذبة المعهودة، ووجهها بسماته الطفولية الأخاذة، تركز انتباهي كله في عيني، شدت الصورة كل المشاعر المضطربة وركزتها في خيالي الذي كبر فجأة حتى صار عالمًا رحيبًا، بدأ عقلي يصحو من غيبوبة طويلة، غيبوبة امتدت عذاباتها القاسية سنوات عدة، لم أفق منها إلا اللحظة، سنوات سقطت جافة صفراء من شجرة العمر التي هرمت وشاخت جراء رحيلها المبكر، غادر خلالها زورقي شواطئ الفرح الموعودة ومضى يخب بين أمواج ذلك اليم المتلاطم، وخلال تلك السنوات جفت ينابيع الحياة في أعماقي، واستسلمت روحي لذلك العالم الكئيب المريع، فأوغلت فيه حتى ظننت أني أعيش حلمًا مفزعًا لم يدر بخلدي يومًا أنه سيحدث بهذه العجالة.

امتد بصره ثانية نحو الصورة، طفق يحدق في العينين الباسمتين، كانتا كتابها المفتوح، والذي كنت اقرأه متى شئت، ترى لماذا وضعت صورة والدتك في هذا المكان، وأمام مدخل البيت مباشرة؟.

الأكيد أنك تريدين مفاجأتي، كان الباب مفتوحًا، وأول ما وقع البصر عليها هذه شهادة حبك الرائعة نحوها يا عزيزتي، بل هي هديتك الثمينة لهذا البيت الذي سكنته الوحشة منذ وقت طويل، واعلم أن شبابك الغض قد تحمل تلك الآلام، وتجاوز أيامًا صعبة وجافة، وأعترف الآن أنني كنت بعيدًا عنك وعن كل أصدقائي وأحبتي، وضعت في مهاد حزني اللانهائي، والآن يستيقظ عقلي ومعه جسدي، وأحاول التحرر من إسار ماض، علينا أن نتجاوزه، وأقول لك لابد من تغيير، ينبغي لهذا الزمن المتوحش أن يمضي كما تغادر سحابة إلى مآلها الأخير.

تقدم داخل الغرفة الواسعة، وجد كل شيء فيها قد تغير، بدت الأشياء أمامه متناسقة وأنيقة، تشمم رائحة طعام تملأ جو البيت، لكن الاهتمام بقي محصورًا في الهوس الذي أحدثته اللوحة الكبيرة في كيانه، والتي تطالعه وتحاصره من كل الجهات والزوايا، كمن يتحدث إلى نفسه: "أكيد إن الشباب أقدر على إحداث التغيير"، انسل صوتها المشحون بالعاطفة من أعماق خياله المتوهج:

– فؤاد لا تنس حديقتنا إنها جنتنا التي أقمنا صرحها بأيدينا، أتذكر كيف كنت أجفف عرق وجهك، وأنت تعمل بين سواقيها تارة، وتنتقل بين أشجارها تارة أخرى؟.

مذعورًا.. التفت إلى الوراء، وخلال فتحة الباب الكبيرة؛ جاست عيناه كل جزء من أجزائها، تراجع قليلاً ثم تحرك إلى الخارج.

وقف عند المسافة التي تفصل البيت عن الحديقة، حاول أن يقاوم نشيجًا لم يستطع أن يمنع نوباته العنيفة من أن تتخلل كيان جسده المنهك، وعلى وقع دفق الذكريات تحرك ليطالع مأخوذًا الخراب الذي ضرب أطنابه في زوايا الحديقة وممراتها وسواقيها بلا رحمة، فاجأه نبات الحلفاء بمنظره الوحشي يغطي أجزاء واسعة من مساحتها، أما أشجارها فقد تشابكت فروعها في إهمال واضح، وتهدلت أغصانها بفوضى لا نظير لها، هو الخراب إذًا يطالعني في الأنحاء والزوايا، ولولا عناية "حنان" المشغولة أبدًا والموزعة بين البيت والجامعة لما وجدت شيئًا يستحق الذكر الآن.

سحق عقب سيجارته بقسوة واضحة، تنفس بعمق، كانت تحدثه ووجهه يقطر ألمًا: "لقد أهملت كل شيء من بعدي يا عزيزي، ألم تعدني أن تُبقي كل ما أحببناه على روعته، وبنفس البهاء الذي كان عليه؟".

ها أنت تكبرين ثانية في خيالي، تملأين آفاق الروح وتنشرين الحياة، كالنبع فيما حولك، إنها الصحوة التي تحتويني، وأشعر بدفقها يهدر في أعماقي، صحوة تمتد إلى مساحات لا نهاية لها، إن الصدأ القديم بدأ يتآكل.

رفع عينيه نحو السماء، تخيلها خيمة حرير هائلة، وفي المدى المتسع لمح طيورًا تنطلق بعيدًا وتلتمع تحت خيوط أشعة الشمس، كما لو كانت نجيمات بعيدة تسبح في أفلاكها، حملت إليه نسيمات

رطبة روائح قداح الحدائق المجاورة، تنبه إلى ابنته وهي تقف بجوار الباب تنفرج أساريرها عن فرح عميق يلون وجهها بدفق الشباب الرائق، إنها تذكرني بوجه أمها المغروس في ذاكرتي.

وجد الحياة تتدفق من جديد في زوايا كيانه المتعب، تلاحقت أنفاسه، رفع يديه إلى أعلى بحركة سريعة، ثم فردهما كطير يتهيأ للانطلاق، وجدها أمامه، هتف:

- ثقي بي يا عزيزتي، سيكون كل شيء على ما يرام، لقد انتهى إسارنا، إننا نقف تحت أشعة شمس جديدة، أما أنت أيتها البعيدة القريبة ستبقين منارًا لنا، وهذه "حنان" تملأ حياتي بشبابها الغض، وأحلامها الواسعة، وأن عالمًا يضيء ثانية ويهم بالصعود نحو القادم من الأيام، ثمة ضوء يتوهج أمامي، وأشياء تتوالد من جديد، وغموض رائع مليء بأسرار كثيرة تنبسط على مساحات حياتنا القادمة، إنني أخرج من شرنقتي، أولد ثانية وأضيء كأنني نجم في طور التكوين.

٢٨ -٣- ١٩٩٨

عشاء لقِطة مـي

مأخوذًا.. تابعت عيناه قطرات المطر التي انهمرت هنا وهناك، ونقشت صفحة الماء المنساب بهدوء ودعة بدوائر صغيرة، ما لبثت أن اتسعت متسارعة لتضيع في ذلك المجرى الهادئ العريض.

تحرك خيط السنارة في يده؛ فتنبهت له حواسه بسرعة، ظل يراقب قطرات المطر التي ما لبثت أن انقطعت، كما لو كانت ومضات برق سريعة، انتشر بعدها ضوء شمس لين غمر كل ما حوله، وانعكس على سطح الماء مغازلاً بعذوبة رائعة ذلك المجرى الذي بدا وكأنه استأنس به، ثمة سحابات تتحرك تجاه الجنوب، وها هي أجراس روحك ترتعش بخوف لم تستشعره من قبل.

حاول أن يهدئ من روعه، آلمتك كلماتها على ما فيها من رقة وليونة، وهي تستخف بك صيادًا.. بل ورجلاً، "لن تكون هذه المرة أفضل من مثيلاتها السابقات، لن تصطاد شيئًا أو على الأقل بعض سمكات صغيرة ستكون عشاء لقطة مي، كبرت يا رجل، داهمتك الشيخوخة على عجل، ها ها ها.. آه.. لا أحد يعرف متى يكبر الرجل إلا زوجته".

تحرك الخيط بين أصابعه فأعاده إلى حالة التوتر التي كان عليها، الصيد عالم غامض لا يعرف الآخرون أسراره، إن الذي يجربه

ويعيش لحظاته هو الذي يكتشف خريطة غموضه ويأنس لسويعاته المتوترة المفعمة بآلام الروح، وهي تنتظر الصيد كما تنتظر الأم وليدها..

هكذا تحدث نفسك وأنت ترخي الخيط ليأخذه التيار بعيدًا عنك، ثم يعود كل شيء إلى هدوئه الذي كان عليه، نظر إلى يمينه على مبعدة منه كان شبح صديقه يتحرك، يقوم ويقعد، يبدو أنه يصارع صيدًا محترمًا، لابد أنه سيصطاد سمكة كبيرة أو أكثر كما هو الحال في المرات السابقة، الحظوظ لا العقول.

آه.. اللهم أبعدني عن كل ما يجعلني أسيء إلى صديقي، لا.. لستُ حاسدًا، لكني أطمح في أن أدخل بيتي ومعي صيدي الذي وعدت به تلك المرأة، المرأة التي هي صباي وشيخوختي، ألمي وفرحي، كبريائي وخضوعي، قوتي وضعفي، إنها جهاتي التي أرى خلال كيانها فصول حياتي، بداية بربيعها وانتهاء بخريفها، أأرجع بلا صيد إلا من سمكات صغيرة؟! ستعود لتتندر ثانية، إنها سمكات تليق أن تكون عشاء قِطة مي العزيزة، آه لو أنك تحافظ على صحتك وتقضي وقتك بما يفيد، أليس هذا أفضل من تبديد وقتك بهذا العبث الذي تسميه صيدًا؟.

ويجذبك الخيط حتى لكأنك توشك أن تسقط في النهر، فتمسك بكلتا يديك به والذي بدا كأنه سينقطع، حاول أن تشده ثانية إليك ثم اسحبه على مهل، تأكد من أن سنارتك لابد وأنها قد ألقمت فم السمكة طعمها، ولسوف تخترق أسنانها الحادة أعماق فمها، عليك

أن تحاصرها كصياد ماهر خبر أسرار هوايته، ثم تسحبها على مهل، وعندما تضعها هناك أمامها لن يكون بعدها ثمة شك في قدرتك التي ستعترف بها صاغرة، سوف يملأ وجهك سمات كبرياء منتصر، ثم تكون ليلة تتأكد بعدها أن السنين لن تنال منك مهما مرت عليك..

ها أنت ثانية ترتعش، بل إنك على وشك أن تهوي في النهر إثر هذه الهزة المريعة، اثبت في مكانك وابدأ العمل فورًا، فالصيد آت إليك، عليك أن تبدأ بسحب الخيط وأن تثبت قدميك في مكانهما وتحصر قوتك في يديك، اقرع أيها الزمن الملعون طبول الفرح، فالصيد قادم والروح ترقص فرحًا، الآن ستمحي كل احباطاتك السابقة.

ما هذا؟ الخيط لا يطاوعك، بل إن قواك لا تسعفك، إنه وضع لا طاقة لك به، وصديقك مازال بعيدًا عنك، لا يستطيع أن يمد لك يد المساعدة، الاعتماد على النفس شجاعة، هيا اسحب.. استنفر قواك المختفية خلف شحوب السنوات السالفة، أطلقها من عقالها، انهض أيها الرجل نهوضًا تتكسر له أضلاع الماضي كلها إلى غير رجعة، اطفئ كل نيران التردد الذي أحاق بك..

اسحب الخيط إليك يطاوعك، يأتيك بصعوبة ولكنه آت إليك، الصيد آت، إنه يأتي نحوك، إنه قريب منك، لقد أخذ التعب منك كل مأخذ، ولكن لا بأس عليك، اسحب بقوة وكن هادئًا حتى تحين فرصة توجيه الضربة الأخيرة لرأس صيدك، الضربة التي ستفقدها قدرة

التحرك، غابت كل الجهات من حولك وبقيت جهة واحدة هي التي تدرك أبعادها، إنها جهة النهر والخيط الذي تعلق به آمالك. يلزمك أن تخرج من ذلك الجسد الذي أوشك أن يتهاوى إثر خيباته الماضيات.

الصيد لذيذ لكنه صعب، قالها النهر لك أكثر من مرة، وها أنت الآن تجلس وتتأمل المسافة التي تفصلك عن الأمس، وتلف بقايا الخيط على يديك، تعذبك آلامهما لكنك ينبغي أن تتجاوز، الصيد قريب، ها هو أمامك، إنها سمكة كبيرة، أكبر من فرحك بها، كانت حلمًا، وها أنت تسحبها بكل ما تبقى لك من قوة، هل يمكنها أن تقول إنها عشاء قطة مي.

المسافة تقصر والسمكة تكبر بين عينيك، مازلت تسحب الخيط لكن بهدوء، ها هي أمامك، سمكة رائعة كبيرة، كبيرة جدًا، أكبر من أحلامك كلها، تمد يدك لتسحب بقاياها.. لكن ما هذا؟! إنها تنفلت بقوة من بين يديك قاطعة الخيط، كأنها عملاق انطلق من قمقمه، ثم وبسرعة خاطفة غاصت ثانية في الماء الذي بدت دوائره تتسع إثر حركة السمكة فيه ليعود ثانية بعد برهة قصيرة إلى هدوئه وسط صمت شامل عميق.

آذار ٢٠٠٢

خيبــة

لمحها في الجانب الآخر من الشارع تنقل خطواتها بتثاقل يشي بتعبها، وقف برهة، تفتحت فيها نوافذ الذكريات على مصاريعها، ثم وبتصميم قطع الشارع مسرعًا ساعيًا إليها، مارًا بين سيل السيارات المندفعة كالسيل، راودته في تلك اللحظات أفكار شتى، تذكر – كأنما استيقظ الماضي كله مرة واحدة – كل حياته معها، إلا أنه استطاع أن يزيح جانبًا كل مشاعره ليقرر بسرعة أن يلتقيها، شخص أمامها ينظر إلى عينيها المخضلتين كما لو كانت تبكي منذ لحظات، ووجهها الذي استحال إلى دهشة عارمة، كانت قد فوجئت به، إلا أن ابتسامة – أو هكذا خيل إليه – طافت على ملامح الوجه المتعب، خففت شيئًا من قلقه وانفعاله، فقال وهو يحتويها بمشاعره:

– مرحبًا.. كنت أظن أن اللقاء بك صار مستحيلاً.. بعد هذا الزمن الطويل..

بصوت خلا من كل نبرة إلا من شحنة تحد أجابته قائلة:

– ماذا تريد..؟!

تصاعد انفعاله وسرى في عروقه كالإعصار:

– أهكذا يتقابل الأصدقاء؟!

- لم نكن أصدقاء.. ولن نكون..

قالت ذلك بهدوء وهي تحدق في الطريق الممتد أمامها تنقل نظرًا لا يكاد يستقر على شيء معين.

- بالنسبة لي أعتبر نفسي صديقًا (ثم بلهجة أكثر لطفًا أكمل) وإن شئت.. أكثر من صديق..

- بعلامة ماذا؟!

أجابته وهي تنقل خطواتها المتعبة على رصيف الشارع، للحظات مرت فترة صمت، كانت أفكاره تتدفق في اتجاهات مختلفة، قال في نفسه: "هذه امرأة مسكونة بالشياطين، تبدو الآن كسفينة هدتها الأمواج، إنها متعبة وذابلة، أين ذلك الشباب الذي كان يتدفق كالشلال من عينيك، وما هذه العباءة التي تتلفعين بها، وهذا الشحوب الذي يطل من مسامات وجهك كالحزن القديم، أية مشاعر تداهمني اللحظة، إنني أتشظى كالزجاج المهشم"، حاول أن يغير وجهة الحديث:

- لقد فوجئت بانتقالكم من محلتنا..

قاطعته متأففة وبانفعال بدا له صادقًا:

- لا تذكرني بزمن البراءة وأيام مرت كالحلم.. قد تكون كل ما يتبقى للإنسان من هذا المستنقع العفن..

- حسنًا.. ولماذا لا نرجع إلى تلك الواحة، أنتِ تعلمين مدى..

ثم قطع كلامه فجأة ليسألها بحنان:

- إلى أين تتجهين؟

- إلى مكان ما.. ماذا تريد؟

- سأرافقك..

- أنت مجنون..

- هذا قرار..

قال ذلك ورفع يده ليوقف سيارة أجرة، ثم أمسكها بقوة من يدها ودخلا معًا، أغلق باب السيارة بعد أن استقر جانبها، ارتفع صوتها كأنها تحدث نفسها:

- كما يقولون.. إن الجنون فنون..

ارتفع صوت السائق مستفسرًا عن المكان الذي يريدان الوصول إليه، أجابه إجابة غامضة:

- إلى الجانب الآخر.. اعبر الجسر ثم استمر من فضلك..

قالت بغضب مفتعل.. هكذا بدا لكلاهما:

- فؤاد.. إلى أين؟

- إلى بيتك.. هناك سأتقدم طالبًا يدك..

فاجأته ضحكتها.. ثم وبسرعة اغرورقت عيناها بالدموع، أذهلته المفاجأة، شعر بتعب يشل عنفوانه، كبر فجأة، حتى لاحت له صورته على هيئة كهل متعب، كبستان مهدم الأسوار، ثم سمعها ترد:

- لا يوجد أحد هناك.. ليست الأمور كما تظن..

- زبيدة..

رفعت يدها تمنعه من الكلام قائلة:

- أرجوك.. دعني..

ثم خاطبت السائق ليتوقف، نزلا معًا، أغرقه صمت عميق، لا تهربي مني بعد أن تعبت الدروب من طوافي فيها، صوتك يلاحقني حتى في الأحلام، الهوس يلازمني، ليس له دواء إلا أنت، أية صدفة رمتك يا زبيدة أمامي، أية ريح مجنونة حملتك في عصرية الحزن هذه، إنني أغوص في قاع نفسي، أشرب مرارتي، أتجرع خيبتي سمًا يسري في شراييني، أشنق مشاعري المجنونة على مرأى ومسمع منك، وكنت أحلم بك، أغنية تشدو في ثنايا العمر، ربيعًا يتوج أيام الجفاف والأشواق الضائعة في الطرقات ومنعطفاتها، في ليل الجنون، في الرؤى التي كانت تلوح كالآمال.. أي وهم عشته يا فؤاد، وأي أماني زرعتها ولم يخضر فيها ساق..

هل تكفي كلمات الرثاء على كثرتها لتريح لك عقلاً هدَّه التعب، وجسمًا عذبته الأشواق، كل شيء أمامي يذوي، وجدتها يابسة كالشجرة التي فارقت الماء منذ زمن بعيد، لقد ورثت الحزن كله، انتبه من غفوته على صوتها يقول كأنما أحست بما يعتمل في أعماقه:

- ليست الأمور كما تظن.. أرجوك فؤاد.. أنت لا..

ظل صامتًا.. ثم بدا صوته متعبًا وهو يخاطبها:

- أضعت عمرًا وأنا أبحث عنك.. عبرت مرارًا منافذ الموت والحياة، أذلني الليل يا زبيدة، سحَّت دموعي مرارًا، كنت أسمعك

تتحدثين إلي في عذابات الليالي، كنت ألتقيك أملاً، لكنني وجدتك جدارًا مهدمًا، لم أعد أحتمل كل هذا، ليتني ما التقيت بكِ.. لكان الحلم العذري ظل ناصعًا، لكان الأمل يساعدني على الاستمرار، لكن كل هذا مضى..

- قلت لك لا فائدة من هذا النواح..

- لا أصدق.. زبيدة الرقيقة تتحول إلى جلادة، ماذا أرى وأسمع؟!

- عليك أن تصدق.. الصورة لم تعد هي الصورة، تمزقت وضاعت أجزائها المهمة..

أرى مرارة ملأت فمه.. مع كل هذا فأنا مستعد للاستمرار معك، مضيا في طريق فرعي، ثم توقفت هي ملتفتة إليه:

- إن كنت تريد اللقاء فغدًا صباحًا انتظرك، ذلك بيتي.. بل بيتنا، أما الآن فأنا متعبة..

قالت ذلك ثم دلفت مسرعة إلى الداخل عبر باب حديدي.. غيبتها أشجار الحديقة التي كانت تظلل البيت حتى لا يكاد يبدو منه إلا جانبه الأيسر، وقف لحظة.. استوعب الموقف تمامًا.. شعر كأن جراح الدنيا تنز في دواخله، انسحب راجعًا ينقل خطوات أثقلتها خيبة معتمة بلون المساء الذي بدأ ينشر ظله على كل الأشياء.

٢٤- ٤- ١٩٩١

يوم في حياة المواطن
"عبد الله المدهوش"

(١)

حزن بارد قاس؛ يسكن عقلي ويفترس أعماقي ويسري في عروقي كأنه مرض عضال، لا شفاء منه ولا خلاص، حزن يدمر هدوئي وينهش بقايا إرادتي، أحاول التحايل عليه فلا أحقق إلا مزيدًا من الألم، يضاعف ذلك الحزن ويكثف غيومه، أنثر نظراتي بين الفينة والأخرى على كل الأشياء، والتي لا أرى فيها إلا مناظر، كأن البصر قد تعود على رؤيتها ملايين المرات قبل، أعود ثانية إلى عملي فأجد فيه بعض العزاء، ولطالما سألت النفس: "لم هذا العذاب؟"، فلا أجد إجابة تنتشلني من بعض ما أنا فيه.

وينبعث صوت أجش هازئ يسخر مني قائلاً: "لقد مضى ذلك السحر في لحظة واحدة هي كل الزمن الذي عشته مهما امتدت حياتك، ومهما حاولت أن تملأ هذه الحياة فلقد مضى العمر، وعليك أن تعود نفسك على تلك الحقيقة، ولعلك بعدئذ تخلد في نهاية الأمر إلى شيء من الهدوء، هو في الحقيقة رماد أيامك الآتية".

واستشيط غضبًا وألعن اليأس والحزن وكل الآلام، وأشعر بانني أتعملق وأمتد إلى كل الجهات في لحظات قليلة، ثم أصرخ بكل طاقات صوتي:

– لا.. لن يقتلني الحزن ولن يأتي على ما تبقى من أيامي القادمة.

• • • •

(٢)

اليوم ستكمل السنة ما تبقى من ساعاتها ولحظاتها، ماضية إلى مستقرها أو نهايتها، ها أنا أستعيد للمرة الألف كيف حدث ذلك اللقاء الغريب، الذي تحول إلى قدر شمل كل حياتي ووجودي..

كانت ظهيرة حارة، وكنت على وشك مغادرة محلي، عندما توقفت تلك السيارة الفارهة قبالتي، ثم نزلت منها امرأة كأنها سحابة ضوء، وقفت أمامي بعد أن خلعت نظارتها، مسحت وجهها بمنديل ورقي ثم خاطبتني بدون مقدمات:

– أريدك أن ترافقني لتصليح أجهزة التبريد في البيت.

لم أدرك تمامًا ما قالته في حينها، فلقد كنت أعاني من حالة ضياع تكاد تكون كاملة، فتحت عيني على سعتهما لأحتضن صورة الوجه الرائع بكل ألقه وكبريائه، ثم انتبهت في لحظة واحدة كأنها السحر، تساءلت:

- ماذا؟

خرجت من فمي سريعة.. مذهولة، إلا أنها ابتسمت كما لو أنها أحست بما أعانيه، تفحصتني كما يتفحص الفنان شيئًا أثار انتباهه، همست:

- سأعيد عليك ما قلته، أريدك أن ترافقني إلى البيت لتقوم بتصليح جهازي التبريد كانا قد تعطلا منذ فترة وجيزة، هل هذا واضح؟

قلت بسرعة:

- نعم واضح.. واضح جدًا..

حدقت في عيني ووجهي باهتمام أثار فضولي ثم قالت:

- عجيب.. أنت تشبهه تمامًا!

ثم استطردت متسائلة:

- متى يمكنني المرور عليك، ها.. اعتقد أن الخامسة عصرًا وقت مناسب، أليس كذلك؟

أجبت:

- نعم كذلك.

- سأكون في الخامسة تمامًا أمام محلك.

رفعت يدها محيية ثم مضت مسرعة نحو سيارتها، وغابت بعد لحظات كما الحلم.

• • • •

(٣)

شرعت أنثر ساعات الزمن وأجزائه هنا وهناك، أتحايل على الوقت أتشاغل بالنظر إلى الطريق، أعد السيارات التي تمرق أمامي، أتأمل وجوه الناس ثم أعود ثانية لأتوغل في أعماقي محاولاً التخفيف عن مشاعرها وهواجسها المتلاطمة كموج بحر هائج.

بدأت أجمع ما أحتاج إليه من الأدوات وأضعها في حقيبة قديمة، طالما رافقتني في تأدية أعمالي السابقة، نفثت دخان أكثر من سيجارة مخففًا بعض من قلقي، الموعد يقترب ثم تتوقف السيارة وتهبط منها سحابة الضوء ثانية، تحييني بابتسامة رقيقة ثم تقول بصوتها الناعم:

– هل أنت مستعد؟

أرد عليها بسرعة قائلاً:

– تمام الاستعداد..

– هيا إذن.

تسبقني خطواتها وأمضي خلفها حاملاً حقيبة الأدوات، افتح باب السيارة ثم أجلس جوارها، انطلقت السيارة بنا وأنا ذاهل عما يحيطني، سابحًا في ذلك الجو البارد المضمخ بعطرها النفيس، ودون أن تلتفت همست:

– عجيب.. إنك تشبهه تمامًا!

انتبهت للجملة التي سمعتها من قبل، أجبتها متسائلاً:

- أشبه من؟

لم تكترث لسؤالي، لكنها عادت بعد لحظات تتساءل:

- هل هذه مهنتك منذ زمن طويل؟

- تعلمتها منذ صغري، كنت أدرس وأعمل.

قالت بنفس الهدوء:

- عظيم، وهل أكملت دراستك؟

أجبتها:

- نعم، تخرجت في كلية الآداب قسم الاجتماع منذ سنتين، لم أبحث عن وظيفة، فعملي هذا يدر علي أفضل من أي وظيفة.

أجابت:

- عظيم، عظيم..

تشجعت وتساءلت:

- أشبه من.. من فضلك؟

أجابت وكأن الأمر لا يعنيها:

- تشبهه..

قالت ذلك وصمتت ثم ما لبثت أن استدارت لتدخل زقاقًا، انتصبت على جانبيه بيوت فخمة وحدائق واسعة وأشجار كثيفة تحيط بتلك

البيوت، أوقفت سيارتها أمام باب بيت بدا لي كالخيال، أشارت إلي ثم قالت:

- ابق مكانك..

توجهت إلى باب البيت، فتحته على مصراعيه ثم رجعت إلى سيارتها لتمرق كالسهم خلال الممر الطويل، شملت نظراتي الحديقة الواسعة والمتناسقة، وكذلك خضرتها الداكنة، قطعت علي تأملاتي قائلة:

- تفضل..

فتحت باب البيت، دخلت وراءها، توقفنا أمام صالة كبيرة كانت مفروشة بذوق يدل على الرفعة والتناسق ثم أشارت إلى جهاز التبريد وقالت:

- هذا..

توجهت نحو الجهاز، أدرت مفتاح التشغيل فانهمر الهواء كالشلال، فحصت المقياس ثم مررته على درجات البرودة فوجدته صالحًا هو الآخر، قلت في نفسي متسائلاً: "الجهاز على أفضل ما يكون، فما السر وراء كل ذلك؟".

أبقيت الجهاز مفتوحًا ونظمت درجة برودته، ثم جلست على أحد الكراسي القريبة مني، تطلعت في أرجاء تلك القاعة الباذخة، لم أسمع حركة في البيت تدل على وجود أحد فيه سوى صوت المكيف الذي بدأ يهدر، تملكتني رغبة في أن أمضي إلى الباب

وأسرع بالخروج من هذا المكان، في اللحظة التي هممت بها فعلاً أن أمضي من حيث أتيت دخلت هي إلى القاعة، بادرتني قائلة:

- آسفة.. تأخرت بعض الوقت.

كانت تحمل صينية فيها قدح عصير قدمته إلي فشكرتها، جلست قبالتي صامتة، قلت وأنا أحدق في عينيها:

- الجهاز يعمل على أفضل وجه ولا يوجد به عطل.

ردت بغير اهتمام متسائلة:

- هل هذا معقول؟

أجبتها:

- ها هو أمامك.

لفنا صمت أحسسته ثقيلاً علي، ارتفع صوتها:

- يبقى إذن الجهاز الآخر..

- أين هو؟

انتصبت واقفة وهي تقول:

- تفضل معي..

مشت أمامي، لحقت بها، تسلقت السلم برشاقة، وقفت أمام باب دفعته بلطف، انفتح على غرفة نوم باذخة، لفت انتباهي صورة رجل كبير السن، معلقة على الجدار المقابل، أشارت بيدها إلى الجهاز وقالت:

- هذا هو.. تفضل.

توجهت نحو الجهاز أمسكت مفتاح التشغيل أدرته، انبعث هواء بارد وسريع، التفت كي أقول لها إن الجهاز سليم، لكنني لم أجد لها أثر، تتابعت دفقات جهاز التبريد، فبدأ جو الغرفة بالتغير شيئًا فشيئًا، كانت هناك مجموعات من التحف نثرت بسخاء في أرجاء الغرفة، وكان سرير النوم يتوسطها، لمحت صورتي بالمرآة الكبيرة، تخللت أصابعي شعر رأسي، كانت لحظات حرجة، تلك التي تتابع منذ دخولي هذا البيت، ثمة مشاعر تتدفق في الأعماق هي مزيج من القلق والخوف والترقب، تساءلت:

- هل يعقل أحد أن تعيش شابة رائعة كهذه، وحيدة في بيت بهذا الحجم والاتساع؟ ثم إذا كان أحد معها، فإين هو؟

ساورني شعور أن هذه الشابة اصطادتني صيدًا، وها أنا أقبع في الفخ! في هذه الآونة ظهرت ثانية بملابس شفافة، وبيدها كأس مترعة، تقدمت نحوي باسمة الثغر:

- خذ..

دفعت إلي بالكأس، في تلك اللحظات أحسست بعطش الدنيا يفترسني، تناولت الكأس، ابتسمت وقلت:

- الجهاز على أفضل ما يكون.

هزت رأسها وقالت كأنها لا تدري:

عجبًا.. كيف ذلك؟!

قلت:

- ها هو أمامك.

في هذه الآونة ناولتني صورة صغيرة نظرت إليها مدققًا، تساءلت:

- من هذا؟

قالت بجد:

- أنت!

هززت يدي التي تحمل الصورة وضحكت قائلاً:

- أنا؟

أجابت:

- نعم، ألا ترى أنه يشبهك؟

تأملت الصورة ثانية، رأيت شابًا في الثلاثين من عمره، عادي الشكل تمامًا وبفكين كبيرين، مددت أصابعي أتلمس فكي وقلت:

- لا يمكن أن أكون شبيهًا بهذه الصورة!

ارتفع صوتها وهي تتساءل:

- لماذا أيها المحترم؟

ببساطة قلت:

- أنا أجمل بكثير من هذا الشكل الموجود في الصورة.

مدت يدها وسحبت الصورة من يدي قائلة:

- هكذا إذن، تفضل معي.

خرجت من الغرفة لحقت بها إلى غرفة جانبية دخلتها فدخلت معها، كانت تتوسط الغرفة مائدة طعام صفت عليها بعض أطباق من الحلوى والمقبلات الأخرى وبرز من بين الصحون الكثيرة، زجاجة شراب تحيط بها بعض الكؤوس الصغيرة، مدت يدها ورفعت الزجاجة، صبت سائلها في قدحين، قدمت لي واحد منها، أشارت إلى أحد الكراسي القريبة وقالت:

- تفضل اجلس..

بعد لحظات رفعت كأسها محيية فرفعت أنا الآخر كأسي ردًا لتحيتها، كان السكون شاملاً وكنت أحاور نفسي: "لو حدثت أحد بما يحصل لي الآن فهل من يصدقني؟ سوف أركب الموجة حتى النهاية"، قطعت علي خيط تداعياتي قائلة وهي تبتسم:

- غريب.. لم نتعارف حتى الآن.

حدقت في عينيها الواسعتين، لمحت في عمقيهما أشياء كثيرة، قلت مجاملاً:

- مهما يكن فإنني أتشرف بمعرفتك.

بدا تأثير الشراب واضحًا عليها، فقد تخففت بعض الشيء من هدوئها السابق:

- الاسم من فضلك.

أجبتها مداعبًا ومتجاهلاً سؤالها:

- إنك تذكرينني بامرأة أكن لها إعجابًا كبيرًا.

-هل هي حبيبتك؟

ضحكت ثم داعبتها قائلاً:

- عرفيني باسمك وسأقول لك من هي هذه المرأة.

أجابت بعذوبة:

- اسمي عطري.

هتفت:

- الله.. إنه اسم غريب ورائع، عطري من العطور ومفرده عطر.

أردفت:

- ها.. من هي هذه المرأة؟

قلت بجد:

- كليوباترا!

ضحكت طويلاً ثم قالت:

- ما الذي ذكرك بها؟

على الفور أجبت:

- في وجهك شيء يذكر بالجمال الفرعوني، لذا سأناديك باسم كليوباترا مع اعتزازي باسمك الذي تحملينه.

- لم أعرف أنك محدث لبق.

- تأكدي إنني أقول الحق فقط.

صبت كأساً أخرى، رفعتها إلى فمها ثم قالت:

- لم أتعرف على اسمك حتى اللحظة!

بلهجة مرحة أجبتها:

– عزيزتي كليوباترا، اسمي المواطن عبد الله المدهوش.

ارتفعت ضحكتها ثانية وبدت تأثيرات الشمول عليها واضحة، أحسست إنني أتخفف كثيرًا، وأزيح ترددي بثقة وسرعة، قالت:

– لسوف أدعوك باسم أنطونيو، هل يرضيك هذا الاسم؟

– جدًا..

ناديتها منغمًا الكلمة:

– كليوباترا..

فردت من بين ضحكتها الساحرة:

– أي حلم من لياليك الحسان.

ثم قالت:

– تذكر إنني قارئة جيدة، كنت في الصف الثالث في قسم اللغة العربية، وتركت الكلية في حينها.. لماذا لا تأكل؟

– إنني أكل فعلاً.. كم الساعة الآن يا ترى؟

حدقت لحظات في وجهي، سألتني باهتمام:

– هل تحترم الزمن؟

– وهل يستطيع أحد أن يتجاهل هذا البعد الرهيب؟

فهمست كما لو كانت تحدث نفسها:

– أما أنا فإنني استلقي خارج الزمان والمكان.

ثم تساءلت:

- بودي أن ترد علي بقناعة كاملة، ما أجمل الأشياء في هذه الحياة؟

بدا لي إن كلماتها تتساقط متثاقلة، قلت:

- لا أستطيع الإجابة عن سؤال كهذا.

- لمَ؟

- لأنه لا يمكن حصر الأشياء الجميلة في هذه الحياة.

- هكذا إذن..

- هل لديك اعتراض على ما قلت؟

لم تجب، لكنني قطعت الصمت الذي ران علينا:

- لو سألتك نفس السؤال فبماذا تجيبين؟

قالت بسرعة:

- الحزن!

- لماذا الحزن؟

- من الأحزان تنبع كل أنواع السعادة التي يحس بها الإنسان، لا تستطيع أن تتذوق أي شيء جميل إذا لم تعرف فعلاً طعم الحزن.

قامت متثاقلة وكان الهدوء شاملاً كأنه ستارة شفافة تغلف وجودنا، التفتت إلي قائلة:

- خذ راحتك، أما أنا فسأحاول أن أنام قليلاً..

كالحلم مضت خارج الغرفة، بقيت وحيدًا ورأسي ثملة، قلت: "أفضل ما أفعله هو أن اغسل رأسي بالماء البارد". كان الحمام قريبًا مني، خرجت بعد قليل أكثر هدوءًا ومضيت إلى ستارة الشباك، أزحتها قليلاً ونظرت خلال الزجاج، ترامت الحديقة أمام بصري واسعة ورؤوس أشجارها تنوس بهدوء، تساءلت: "آه لو أعرف كم الساعة الآن؟".

الوقت يمضي وثمة وسن يداعب الجفون، مضيت إلى حجرة النوم، أخذت مكاني إلى جانبها، لا أدري كم مضى من الوقت حين استيقظت كالمذعور، ثمة صداع خفيف يربك لحظات الهدوء التي تحيطني، مضيت مسرعًا إلى الحمام غسلت وجهي ورأسي ثم التقطت بعض حبات من العنب، رجعت إلى الغرفة ثانية، كانت هناك آثار دماء على يدي، ابتسمت بألم وأنا أنظر إليها وكلماتي تتساقط في أعماقي: "أيتها النمرة المفترسة".

أحست بي فنهضت، مسحت وجهها بيديها ثم عدلت شعرها الذي انسدل على كتفيها بغير انتظام، مضت خارج الغرفة وعادت بعد دقائق قليلة، كانت أكثر إشراقًا، ابتسمت قائلة:

- سنشرب القهوة ثم نمضي.

بهدوء أجبت:

- كما تشائين يا عزيزتي..

أبدلت ثيابها بسرعة وقالت:

- هيا..

- لو أعرف كم الساعة الآن؟

نظرت طويلاً في وجهي ثم قالت بابتسامة رائعة:

- أنطونيو.. لعنة الله عليك!

أجبتها ممازحًا:

- شكرًا على هذا الإطراء يا عزيزتي كليوباترا.

• • • •

(٤)

انطلقت السيارة بنا في شوارع هادئة، كانت ساعة السيارة تُشير إلى الخامسة صباحًا، بدأت الحياة تدب في الشوارع، تأملت كل الأشياء التي تقع تحت بصري، التفت إليها وخاطبتها:

- سوف يكون هذا اللقاء الذي تم بيننا ذكرى لا يأتي عليها الزمن.

ثم برجاء قلت:

- هل سنلتقي ثانية؟

وهي تحدق في الشارع المنسحب تحت عجلات سيارتها:

- دع كل ذلك للصدفة.

توقفت السيارة قريبة من باب محلي، ابتسمت قائلة:

- بلا وداع..

رفعت يدها محيية وانطلقت ثانية بأقصى سرعة لتغيب بعد لحظات في عمق الشارع الممتد أمامها، كأنه بلا نهاية، كنت مازلت تحت تأثير أحداث الليلة الماضية، أشرت إلى سيارة أجرة وركبت بجوار السائق، أعطيته العنوان، وجدت والدتي تنتظرني عند باب البيت، سألتني صارخة:

- أين كنت يا هذا؟

أجبتها:

- كنت موقوفًا في مركز الشرطة، لأنني بلا هوية!

٢ - ١٢ - ٢٠٠١

آدم

كنا نرهف السمع كي نفهم كل كلمة يقولها آمر وحدتنا، كان صوته حادًا وقاطعًا في آن واحد، تصافحت نظراتنا وهو يوجه لي الكلام:

– اخترناك ورفاقك من بين اللواء وكتائبه وسرياه وفصائله، وانتخبت دبابتك "آدم ١" من بين رعيلك لتقوم بالمهمة، وأقول لكم إنها مهمة خطرة وشاقة جدًا، لكننا اخترنا الأفضل والأكثر شجاعة وتجربة، غدًا وعند خيوط الفجر الأولى سيندفع رعيلكم تتقدمه "آدم١" نحو عقدة الساتر لتجتاحه وتفسح الطريق أمام دبابات رفاقك، كن حذرًا ومقدامًا كما عهدناك، تذكر الساعة الخامسة فجرًا.

في مواجهات سابقة وخطرة نجوت منها بما يشبه الأعجوبة، هذه المرة أنت محاصر أيها البطل بموت حقيقي، لقد عرفت الموت من خلال مواجهته معرفة خبير، جرب التعامل معه على كل المستويات وفي كل ساحاته، تجسد أمامي في أكثر من صورة ولون، رافقني كما لو كان ظلي، كنت أراه ساخرًا أو ضاحكًا مرة، وصاخبًا مجنونًا في مرات عديدة، أو جادًا رصينًا وهو يلتقط أهدافه دون رحمة، بل لكثرة ما صادفته وتعودت على تصرفاته؛ صرت أتحدث

إليه، أخاطبه، أهمس في الفضاء الضيق الذي كان يجمعنا في أوقات كثيرة، ومع كل هذه الرفقة لم أتآلف معه أو أحتفظ بمشاعر محايدة نحوه.

لكن هذه المرة الوضع مختلف واللقاء كذلك، ستحتدم المعركة بيننا، بحيث تصبح كل الأشكال شكلاً واحدًا، وكل الألوان لونًا واحدًا، أعتقد أنك ستسعد بها أيها الكريه البشع، اسأل بإصرار، لماذا تلاحقني بلا هوادة؟ ماذا تريد وماذا تبغي؟ ألا تعلم أن العمر مازال في ربيعه؟ هناك متسع من الوقت يا هذا! هناك آمال لم تتحقق بعد، وهناك طموحات ينبغي لي أن أجد السير نحوها، هناك الأخوة والأخوات والأصدقاء الذين ينتظرون عودتي، هناك قريتي الرائعة الهادئة الغافية على شاطئ الفرات الرائع، تتدفق بالخير لتروي به الحياة، آه.. لماذا أتذكر الآن كل هذه الأشياء؟.

أما مدرستي الابتدائية فلها في الذاكرة حيز خاص جدًا، كان الطريق إليها شاقًا وعسيرًا، وكانت قدماي تتجمدان من شدة البرد في فصل الشتاء، وأنا أطوي ذلك الطريق الموحش الطويل، كان مدير المدرسة رجلاً مخيفًا، نهابه ونبتعد عن طريقه، إلا إني رأيت منه شفقة ورحمة لم تخطر ببال أحد من أولئك الصغار الذين يجلسون معي في الصف ذي الجدران الطينية الباردة، لقد عمل هذا المدير الإنسان المستحيل حتى نقلت إلى مدرسة قريبة من بيتي.

كان طريق النهر قد جمع كثيرًا من الأصدقاء، ونحن ندلف إلى بدايات الشباب، ذكريات ساذجة وأحلام بريئة، تلك أيام أتذكرها الآن بمنتهى الحب والزهو والألم، كانت أجمل الأيام وأحلاها وأكثرها براءة ونقاء، كان كل ما يحيط بي في تلك الفترة من سنوات العمر، يدعو إلى الدعة والهدوء.

كنت قد بدأت أطالع الكثير من الكتب والمجلات التي كانت تقع تحت يدي، كان أخي الكبير يجلبها معه إلى البيت، كان شديد الولع بمطالعة الكتب والمجلات التي كانت تصلنا في ذلك العهد البعيد عني الآن.

الله.. الله، ماذا أرى وماذا يجري أمام ناظري؟ إنه والدي، رباه، أتساءل ما الذي جاء بك أيها الحبيب إلى هذا المكان الموحش؟ أكاد أجن، إنه يخاطبني، يقترب مني، يربت بيده المعروقة على كتفي، يقبلني في جبيني، يهتف في سمعي، ولدي كمال كن حذرًا وحافظ على نفسك، لا تمزق ما تبقى لي من قلب، اعذرني يا أبي وقل لي كيف وصلت إلى هنا؟ أنا أعلم إنك قد رحلت عنا منذ سنوات، فما الذي جاء بك؟ أهي القيامة يا والدي، رباه إنني أجن، تلك أمي تضع يدها فوق رأسها صارخة: "ولدي كمال هل صممت على اللحاق بأخيك ياسر؟"، في هذا المدى المسكون بالموت والوحشة؛ انطلق صوت صديقي ورفيقي في السلاح غني عبد الله:
– انتظر، ها أنا قادم إليك.

لحق بي، طوقني بين ذراعيه، وضعت رأسي على صدره العريض، بدأ دبيب راحة يسري في شراييني، كنت أسمع دقات قلبه المتسارعة، الفجر آت ومشاعري كمطر يهطل على كياني من كل الجهات، قلت من بين ركام تلك المشاعر:

- غني.. لقد زارني والدي، رأيته يناديني ويطلب مني أن أكون حذرًا ودموع كثيرة تملأ عينيه، كذلك رأيت والدتي وكانت تخاطبني بألم: "كمال هل ستلحق بأخيك ياسر؟".

- قل لي ما هو الوقت الآن، وكم بقي على موعدنا؟

- مازال هناك بعض الوقت يفصلنا عن فجرنا القادم.

هتفت مسكونًا بمشاعر غامضة:

- غني.. أريدك خلفي كما هو الحال في المرات السابقة، لقد قاتلنا معًا طيلة السنوات الماضية وواجهنا الموت مرات عديدة، هذه المرة أرى أن الأمر مختلف! إن هذه العقدة التي يسيطر عليها العدو منذ فترة طويلة لابد لها أن تنتهي.

أجابني مطمئنًا:

- سأكون معك وخلفك، إن دبابتي سوف تبقى دائمًا بمعية (آدم١) البطلة، وأنت تعلم كيف يصوب غني عبد الله نحو الهدف، وخلفنا ذلك الرعيل البطل بشبابه الذي خبر المعارك طيلة السنوات السابقة.

- لدينا خارطة الألغام، عرفنا بها من أسير كانت قواتنا قد أسرته قبل يومين، سأختار الحافة القريبة من الساتر، وعندما أقترب من العقدة سأنطلق بأقصى سرعتي.

دلفا داخل الموضع القريب، دخنا بصمت ثم شربا شايًا ثقيلاً، كانت ثمة رشقات من مدافع رشاشة تمزق الصمت الشفيف المحيط بهما، كان الوقت يمضي سريعًا وكنت أدخن بإفراط، صارت سجائري هي ملهاتي في هذه الآونة، قام غني بعد أن أطفأ سيجارته قائلاً:

- سأحاول أن أنام بعض الوقت..

أفزعني كلامه، صرخت به:

- ماذا تقول.. تنام.. كيف تنام؟! ومن أين يأتيك النوم؟!

رفع يده مبتسمًا وكلماته تتساقط بطيئة:

- حاول أن تنام ولو لدقائق، وداعًا..

وحيدًا أتساءل بألم لماذا تزوروني كلكم هذه الليلة، هل تودعونني؟ غريب هذا الذي يحدث، كيف تسنى للأحياء والأموات أن يلتقوا كي يقوموا بزيارتي! رأيت والدي وأخي ياسر، كذلك أصدقاء أيام طفولتي وأيام الدراسة في الجامعة، الله.. الله، أين أنت يا نوال؟ ترى ماذا تفعلين الآن؟ هل تزوجت وأنجبت؟ هل سميت ابنك "كمال" كما وعدتني بذلك؟، وأنت يا سامرة.. يا ألمي الذي لا يبارحني، لقد مضيت دون كلمة واحدة، ورغم الجرح الغائر في الأعماق فإن حبك لم يبارح العقل والقلب أبدًا، سامرة لماذا تنظرين

إلي بعينين حزينتين؟ هل تعلمين ما سأقوم به بعد سويعات قليلة؟ وهل تعرفين ماذا سيحدث لي في القادم من هذا الزمن الغريب؟ أريد أن أعرف لماذا تحاصروني جميعكم بهذه النظرات الحزينة المنكسرة؟ أهو الوداع الأخير؟ ربما، لكن شيئًا ما يهتف في أعماقي أنني سأخرج من هذا الموقف سليمًا معافى كما في المرات الكثيرة السابقة، وأن (آدم ١) ستكون كما كانت.. فرسي الأصيل الذي أنجز به ومن خلاله تلك المهمة الخطرة.

خلال فتحة الموضع شملت نظراتي المكان المحيط بي، رأيته كئيبًا يتلفع بسكون مرعب ومريب، ينشر ظله على ساحات الأفق الواسعة، خرجت من الموضع، هبت أنسام باردة تخللت عظامي، فأحكمت إغلاق قمصلتي على جسدي، توجهت نحو دبابتي، وضعت يدي على برجها وسرفتها، مسحت على الحديد البارد بيد رقيقة، تخيلتها جوادًا أدهمًا، امتطيه الآن ليطير بي نحو عوالم بعيدة.. جميلة.. ملونة.. عوالم لا تعرف الموت ولا الدماء ولا الأشلاء، ترى ما الذي ذكرني الآن بـــ (أنتيكونا)؛ هذه البطلة التي رفضت أمر خالها الملك لتقوم بدفن جثة أخيها، أية أفكار تهب على عقلي المتعب الآن، ينبغي لي أن أرتاح، نعم، أن أحصل على شيء من الراحة، أيقظني من تداعياتي صوت الملازم الأول جمال قائلاً:

- هيا.. لم يبق لنا غير دقائق قليلة تفصلنا عن المهمة، الجميع على أهبة الاستعداد يا كمال.

سمعت صوت غني واضحًا وقاطعًا:
- أنا خلفك تمامًا يا كمال.. تقدم يا بطل.

أغلقت البرج بعد أن أخذ الملازم جمال ورفاقه أماكنهم معي، ثم بدأت بتشغيل المحرك، دوى صوته مزمجرًا في وسط ذلك السكون الذي بدأ يتمزق بفعل أصوات الدبابات التي ارتفع هديرها في كل الأنحاء، غيرت السرعة بواسطة العتلة ثم بدأت بالضغط على دواسة الوقود، كانت ساقاي متصلبتان كأنهما قطعتا حديد، حاولت التريث قليلاً، تنفست بعمق، سمعت ملازم أول جمال يخاطبني:
- هيا يا بطل وكن هادئًا.

أمسكت بعصا الاستدارة وعاودت الضغط على دواسة الوقود ثانية متجاوزًا مشاعري بكل تناقضاتها، اهتزت الدبابة أول الأمر ثم ما لبثت أن انطلقت في طريقها، صاح ملازم جمال:
- بأقصى سرعة يا كمال.. بأقصى سرعة.

- نعم سيدي..

ضاع الزمن، تلاشت لحظاته، تساوى كل شيء أمامي، تماسكت تمامًا وأنا أنظر إلى الطريق، المكان يقترب.. بل إنه يجري نحوي، صوت غني اسمعه عبر جهاز الصوت:
- تقدم يا كمال.. تقدم، أنا معك.. أنا معك.

بدا الدوي رهيبًا وشديدًا، تحول الفجر إلى جحيم بلون الدماء، شددت العتلة فانزاح مؤشر الأرقام إلى أقصاه، هي السرعة

القصوى إذن، صوت غني مازال يملأ أفاق روحي، ماذا يحدث؟ أتجاوز الفتحة من بين أمواج الهول الذي تفجر من كل الجهات ثم أشعر بجوادي يتمايل، صرخت ملتاعًا:
- هيا ارموا بأنفسكم إلى الخارج وبسرعة..

وجدت نفسي بجانب الساتر من الجهة الأخرى، كم مضى علي من الوقت؟ كيف مرت الساعات؟ عدت أتخيل ذلك الهول الرهيب، ثم لم أعد أشعر بشيء، فتحت عيني مرة أخرى فتشت عن آدم، لم أجد أمامي سوى ركامًا من حديد أسود، قلت أحادث الفراغ: لقد انتهى الأمر.. أغمى علي ثانية.. أفقت بعد ساعات طويلة، وجدت نفسي ممددًا على سرير، حاولت النهوض لكن غني وضع يده على جبهتي هامسًا:
- لقد كنت أكثر من بطل كما نعرفك دائمًا، إنها إصابة بسيطة في الساق، سنكون قريبين منك، لقد سقط الساتر واستولت عليه قواتنا وهذه هي بشارتك.

حاولت الابتسام، إلا أن ألمًا في الساق اليسرى سرى إلى كل جسدي، وسد علي مسارب السعادة التي تخللت كياني المهدود كله.

نيسان ٢٠٠٠

الليلة الثالثة

"وإذا غرقوا في اليم فإنهم ثانية يقومون...

وإذا ضاع المحبون فلن يضيع الحب، ولن يكون للموت سلطان"

دبلان توماس

انداح الليل مسرعًا، وانتشرت خيوطه السوداء كنسيج عنكبوتي تُغطي منافذ النور، مسدلة ستارة قاتمة على كل ما يحيط به، وأسرع الخيال يطارد الذكريات يقتنصها ثم يستعيدها همًا وحزنًا، هذا هو الليل الثالث يمر به يجرح مشاعره، ويطلق هواجس مخيفة في أعماقه يفترس رؤاه بألوانه الكئيبة، يخلف في الذاكرة غضب وأعاصير من القلق، تأتي على ما تبقى له من إرادة وقوة.

مضت ليلتان وها هي الثالثة وهو منغرس في هذه الحفرة، متشبثًا بأمل أن يستطيع الوصول إلى جسد أخيه الملقى على أرض موحلة بين عشرات ممن سقطوا معه. أحزانه تلسعه كالسياط في الليلتين اللتين مضتا. حاول كثيرًا، زحف على الأرض تاركًا الموضع الذي تجمعت فيه مياه الأمطار المنهمرة منذ الليلة الماضية.

رأى القمر يتوارى خلف سحب سوداء مسافرة عبر مسافات شاسعة، على البعد امتدت غابات النخيل موشحة بسواد الليل

الممزق بضوء الانفجارات ودويها المرعب، لم يعد في ذهنه سوى أمر واحد؛ الوصول إلى المكان الذي يرقد فيه الجسد منذ يومين، عساه يكمل واجبًا فيرافق المعزين وهم يودعونه إلى مثواه الأخير.

سيفاجأ والدي ويصمت طويلاً، أنا أعرفه رجل صلب العود، دموعه تحجرت في عينيه، منذ أن ودع أخي الكبير قاسم، ووسده بيديه في حفرته، الوالدة الحبيبة أي هم يرتسم على وجهك الحزين ليتني أراك وأضمك إلى صدري.

وهاب آه لو يعلمون الآن، ها أنت ملقى أمامي، لا تفصلني عنك سوى أمتار قليلة ولا أستطيع الوصول إليك، آه يا أرض الحرام، هذه ليلة الحسم، لن تبقى في مكانك أكثر مما بقيت، عشت ليلتين لم أذق فيهما راحة، دموعي ممتزجة مع دموع السماء، أيقنت الآن أن لا فائدة من البكاء، ثمة متسع من الوقت، سأبكيك هناك بين الأهل والأقارب والأصحاب، ستبقى ذكراك في كل مكان أرحل إليه، أما الآن فلي منك العذر، أنا في طريقي إليك، غدًا عندما أحمل جثمانك مع الحاملين ستبرق في الذاكرة، كل الأماني الحلوة التي حلمنا بها وستكمل الدموع بقية القصة.

اهتز المكان بفضل سقوط قذيفة، مد جسده سريعًا على الأرض وضع رأسه بين يديه، غطته موجة من الطين والتراب، تشمم رائحة البارود المحترق من حوله، زخت فوقه رشقات من الرصاص.

– سيدي، أرجوك، امنحني هذه الفرصة لن أتأخر طويلاً سآتي به.

تفرس في وجهي ثم قال:

– لك ما تريد، إنني أقدر ما أنت فيه، خذ حذرك فالمكان خطير.

ملأته رغبة عنيفة لرؤية والديه وأصدقائه، حنين طغى على كل ما حوله، هدأت قليلاً أصوات الرعب، رفع رأسه، نفذ بصره خلال الظلام المقطع بوهج القذائف، رأى أخاه على مبعدة منه، التفت إلى ساعته، رأى عقاربها تشير إلى الثالثة فجرًا، همس: "هذا أوان العمل الآن، سأختزل هذه المسافة اللعينة التي تفصلني عنك". شعر بالعطش والجوع يعذبانه، وتعب يسري في جسده كالمرض، برودة الجو تخللت كل مسامات جسده، رفض ذاته مرة واحدة، أزاح كل ضعفه، اتكأ على يديه ثم بدأ يسحب جسده رويدًا رويدًا حتى استوى خارج الموضع، زحف قليلاً تجاه جسد أخيه على الضوء الخافت المتسرب عبر مسافات الزمن، بدأ المحاولة في الليلة الماضية وما قبلها، لم أستطع أن أفعل شيئًا، منعني هذا الرشق اللعين من التقدم نحوك، ومنذ منتصف هذه الليلة خفت حدته، وهاب أنا آت إليك، فاعذرني إن تأخرت عنك، رفع جسده مرة أخرى، توقف عن الزحف، أحس بتعب مفاجئ، انتابته موجة كالجنون، أطبق بأسنانه على سبابته بقوة، بدأ يخاطب نفسه: "إيه مهدي أتشتهي شيئًا وهناك جسد وهاب ملقى على الأرض منذ

يومين مضيا، أتشعر بالعطش، وجسمه معرض للعراء، أينهشك الجوع وهناك دماءه تسقي ما حولها، رباه.. ما هذا الجنون".

زحف بسرعة، تناثر الهول من حوله، انقلب متعبًا على ظهره، تجولت عيناه في الفضاء المفتوح بلا نهاية، رأى القمر حزينًا منكسرًا تغيبه غيوم داكنة، يخرج منها كفارس مهزوم، هدأ قليلاً واستعاد بعض من الراحة، انكفأ ثانية على صدره، بدأ الزحف، لا يدري كم مضى عليه من الزمن، مد بصره المثقل بالفجيعة والحزن، انهمرت دموعه، استولى عليه حنين مضمخ بالذكريات، نسي كل شيء، هتف بألم:

– ها أنا أخيرًا بجانبك، وهاب أخي لا تدري كم عانيت منذ ليلتين، وبعضًا في هذه الليلة أراك أمامي ولا أستطيع الوصول إليك، سأغرس روحي بجانبك شراعًا يحملك إلى مرافئ الحب والخلود، أبحث فيك عن ذاتي التي امتزجت مع ذاتك، أذكر أيام الطفولة والصبا وسنين النار التي التهمت من قبلك قاسم، وها هي تأتي أخيرًا عليك، لن تعرف روحي الفرح بعد الآن، ستبقى ألمًا يرافقني ما حييت، وهاب ألا تسمعني، أما فيك خلجة ترد علي؟ لا بأس عليك، سأمضي بك ستصحبني محمولاً على كتفي، الفجر آت لأسرع في العمل.

تحسس الجسد الثاوي بجانبه، وضع يده على الوجه المغطى ببقايا الطين، أزاح مشاعره جانبًا، استبدت به رغبة العمل، وضع يديه تحت جسد أخيه، رفعه قليلاً حتى استوى جالسًا، انحنى إلى الأمام

ثم طوق الجسد البارد وبدأ يسحبه رويدًا رويدًا، رأى الظلام يتبعثر في كل الأنحاء والقمر مازال يختفي ويظهر من بين ركام الغيوم المسافرة، بدأ خطواته الأولى، قطع أمتارًا قليلة، حاول أن يسرع، أحاطت به رشقات من الرصاص باغتة على حين غرة، عض على شفتيه، انحنى ثانية على جسد أخيه الذي انزلق من بين يديه، منطرحًا على الأرض الموحلة، غام كل ما حوله، ضجَّ خياله بهوس مرعب، رأى والديه يبتسمان ثم يقهقان، خاطبهما بلغة الصمت، أبي.. أمي.. هذا وهاب وذاك قاسم، وأنا مزروع بينهما كشجرة تساقطت أوراقها.

تسارعت أنفاسه، اشتد صوت الدوي، أسند ظهره إلى الأرض، همس كالمأخوذ: "سوف نسافر معًا.. كما عشنا الحياة معًا".
من بين تهاويم الخيال والجسد الذي تمزق في أكثر من موضع رأى غيومًا، تعبر المستحيل كخيول مسرعة، وبينها قمر متعب ذابل الضوء، يتنقل فوق ظهورها، ثمة أصوات قريبة، بعيدة، وخيوط ضوء بدأت تتسلق ستر الظلام، وعينان مفتوحتان تنظران في أفق غامض.

١٩٨٦

الخيمـة

رميت ببصري خلال زجاج العربة العريضة إلى الأفق الذي امتد أمام ناظري بعيدًا كالخيال، كان كل شيء يتراجع مسرعًا ويختفي في ذلك المدى الخرافي الأبعاد، كل شيء يدور ويتراجع مع جنون العربة التي انطلقت بنا مسرعة كالسهم..

استرجعت بصري ثم اتكأت على مسند الكرسي الطويل تمامًا، كنت متعبًا، لكنني لم أخلد إلى النوم كما الآخرين، كنت أريد أن أستمتع بكل لحظة من لحظات إجازتي هذه، حضنت صمتي المفعم بمشاعري الدفينة، امتزجت معه حتى تحولت إلى كتلة تنز بالأفكار والمشاعر والرؤى، والتي كانت تملأ العقل والروح ثم لا تلبث أن تتراجع مسرعة كما تتراجع تلك المناظر التي تخلفها العربة وهي في سيرها اللاهث نحو هدفها.

حدقت ثانية في الطريق الممتد أمامي، وجدته متعرج تارة ومرتفع تارة أخرى، ثم بعد حين يعود مستوي، أحسست بهزة شوق تجتاح كياني المتعب، ثم برز وجهه مشعًا أمامي، عيناه نديتان كوردتين في بداية تفتحهما، ألم أقل لك إننا سنلتقي في إجازتنا القادمة، في المرة السابقة لم ألتق بك، كان الفرق بين الإجازتين قليلاً، لكنني

صممت أن تكون هذه الإجازة هي للقائنا ولإكمال عرسك، فقد انتظرت طويلاً، باسل أصدقني يا ولدي.. أمازلت تحبها؟.

غام الوجه الحبيب قليلاً ثم رفع رأسه كما هي عادته ونطق:
- نعم.. مازلت أحبها كما كنت، بل أكثر، وكما تعرف يا أبي لحظة رأيت في وجهك المسافر أبدًا تصميمًا أكيدًا، واجتاحتني فرحة أيقظت في أعماقي سعادة كنت قد افتقدتها منذ أن رحل (فارس)، قلت في نفسي لا حزن يبقى ولا فرح كذلك، وها أنت أيها العزيز تبدو كقطعة الأرض الغالية على النفس، أهبك بقايا عمري لو أستطيع، لشد ما أنا مشتاق لعناقك..

أواه يا خيمتي الحبيبة، متى يهدأ دفق المشاعر، لقد وعدتك أن آتيك بها، وفي المرة السابقة كنت قد هيأت كل شيء، ومع أن ثمة خوف يتسرب إلى أعماقي لأني بدأت نفس التجربة مع فارس، إلا إنه مضى مخلفًا وراءه حزنًا لا يوصف، قبل أن يتم فرحه، هذه المرة أنا مصمم على أن يكون فرحك مهرجانًا لكل الأقارب والأصدقاء، وأن يرجع البيت إلى سابق عهده، ستغمره المسرة ثانية وتسبح في جنباته قوافل النجوم..

الطريق مازالت طويلة، تمتد متعرجة كأفعى سوداء، ولكم قطعته مرارًا، ذهابًا وإيابًا، رأيته في كل مرة لونًا كمشاعري، سلكته والشمس تنهض من غفوتها مرة وأخرى أراها كغيمة سوداء لا نهاية لها، لكن الطريق هذه المرة تبدو مختلفة تمامًا، أحس

بحجارتها تتراقص طربًا مع فيض مشاعري التي تدفقت في أعماقي شوقًا لباسل، قل لي أي الحجرات في البيت تريدها عُشًا لك ولزوجتك، اختر كما تريد..

آه.. تلك الغرفة التي تسكنها الآن.. فهمت.. تريد أن تكون بعيدًا عن كل شيء، الوقت لا يكفيك، والحب أكبر من كل الأزمنة وأوسع منها، ستكون غرفتك هي جنتك الموعودة، ستنسى فيها ومعها كل ما يحزن الروح ويوقف حركة العقل، اعرف مدى حزنك على أخيك، ولكن لكل شيء نهاية، ستسبح في تيه ذلك الجمال الذي اخترت، اعرف مقدار حبك لها وهي جديرة بك، ما يهمني أيضًا أن أرى ابتسامة فرح حقيقية تطفو على وجه أمك الذي حولته الأحزان إلى أرض جرداء..

يالحزنها.. صحيح أن حزن النساء ليس كحزن الرجال، أتذكر وجهها عندما كانت تسكنه النجوم وتتألق فيه الأنوار، أذكرها جيدًا وأحزن لفقدي تلك الحياة العامرة بكل وهجها وديمومتها، لكن وجهها احترق في آتون حزنها العميق، حتى لكأني أرى روحها وهي تحترق أمامي ولا أستطيع أن أفعل ما يخفف عنها، ألا تنسين يا امرأة.. ألا تتجملين بالصبر؟ لقد سفحت ثلاث سنوات من عمرك البهي حتى صرت كشجرة خريف، نادتني عيونها وهي تشرق بدمعها: "اتركني كما تراني، دعني وحلمي، لن تأخذ مني شيئًا بعد الآن".

آه.. تريدين أن أدخل في أتونك ثانية، لقد ودعت كثيرًا من أحزاني لأجل باسل، وأريدك أن تلحقي بي، لقد نفضت من عيني كل دموعها، أو تتصورين إنني نسيت، وهل ثمة ما ينسى؟ (فارس) يختلج مع كل شهيق أتنفسه، يتحرك مع كل نبضة قلب، كاد السيل يغرقني تمامًا، لكني آمنت بأني يجب أن أقطع النهر عبورًا إلى الضفة الأخرى حاملاً معي بعض حبي وحزني، الحزن سيل يجرف الأشياء.. كل الأشياء، فلا تتركيه يأخذك إلى نهاياته القصوى، لا تستجيبي له بهذه السهولة، لأنه لن يرحمك أبدًا..

وفي الضفة الأخرى وجدت أن الحياة بالانتظار، فها هو باسل يملأ الخيال بألف طفل صبوح، وتلك سعاد التي ستصبح زوجته تتراقص على أديم عينيها أحلام الآتي من الأيام، وتبقى أسرارها له كما ستكون أسراره لها، تفتحي يا امرأة، فما عاد هناك وقت لدموع، لقد سفحنا الكثير منها.. تفتحي يا امرأة وانهضي ثانية، فلقد ضيعتك تلك الزواية التي حبست عمرك فيها، ثلاث سنوات وتذكري أن لكل شيء ثمنه، ولقد دفعت الثمن، أما رأيت كيف أن أشجار حديقة البيت قد أورقت ثلاث مرات.. هيا.. عليك أن تورقي معها هذه المرة، إنني أدلف إلى الخمسين من عمري وأشعر بالشباب يعربد في عروقي، ولولا رحيل فارس المبكر لما غزا القلب حزن ولا رأت العيون دموعًا، فساعديني على العبور.. هيا.. ساعديني.

انتبهت إلى صوت المذياع، كان يرشح أغنية لطالما أحببتها، أخذت أردد مع نفسي كلماتها ولحنها: "زرعت في ظل ودادي"، واستمرت رعشة الطرب تأخذني إلى شواطئ جديدة، أبصرت بعض الراكبين وقد أخذتهم سنة من النوم، بحثت في وجوههم دون اهتمام عما يشغلهم، وجدتها أو هكذا بدت لي خالية من التعبير.. ثمة فراغ أحسسته يلتهم وجوههم فحولت بصري ناحية النافذة، بدأت المناظر تتراجع مخلفة خطوطًا وأشكالاً متباينة في صفحة الرؤيا التي بدأت تلتمع كضياء الشمس الذي ترامى إلى كل الأنحاء.

عجبًا.. كأني لم أعرف البكاء ولم أعانق الحزن طويلاً، يااللفرح الذي ملأ مساحة العقل وأضفى عليها كل حلاوة الزمن، مهما طال الطريق فالوصول إلى النهاية أمر محتوم ومؤكد، ستكون هذه الليلة مرفأ مضيء لنا، كريمة يا زوجتي العزيزة، غدًا أو بعد غد سنزف سعاد لباسل، ابتسمي أيتها الحبيبة ولك عمري، ابتسمي ودعي الحزن ولو إلى حين، سيدتي التي اجترحت معها المعجزات، لحظة فرح واحدة ستكون معجزتك التي انتظرتها ومنها تنطلقين، هذا فرح عمرنا..

أتذكر سعادتك وأنت تحلمين بربيعهما، أتذكر رغباتك وحبك المستحيل يغمرهما بفيض نهر متدفق، وكانت حصتي آنذاك كحصة الأسد، آن لك أن تبدأي من جديد كما بدأت، هيا ولا تلتفتي كثيرًا إلى الوراء، فهناك في تلك الفسحة ما يغري بالاستمرار، مدي لي

يديك ثانية ودعي سفينتنا بما تبقى فيها تبحر هادئة فوق سطح الذاكرة، لقد تركتك سابقًا بعد ان يأست ولكن هذه المرة الوضع مختلف تمامًا، هذه المرة أنا مصمم على عشقك ثانية، هيا.. مزقي كل مراثيك القديمة وتعالي إلي بثوبك الجديد، فأنا أعرف بما ينز في عروقك من لهيب، وذلك هو الجحيم الذي أريد..

أوه.. ياله من زمن، وتتوقف السيارة في نهاية رحلتها، يترجل منها الراكبون وأنا معهم أمسك بحقيبتي الصغيرة التي رافقتني في كل أسفاري ذهابًا وإيابًا، أسعى إلى بيتي بعد أن وقفت قليلاً على رصيف الشارع، شربت عيناي كل ما وقع تحت نظرهما المتلهف، الناس والسيارات والنساء والرجال والأطفال وحتى الضجيج، كأني فارقت هذه الأشياء منذ دهور وأقذف بجسمي في سيارة أجرة، أعطيت لسائقها العنوان والعيون تشرب كل ما يقع أمامها.

تتوقف السيارة في بداية الشارع الذي بدأت أقطعه متمهلاً، الوقت عصرًا والجو بدأت برودته تنز منه وتهاجمني، أحكمت إغلاق قمصلتي وتقدمت متجهًا إلى حيث البيت، نظرت إلى الأمام.. توقفت تمامًا.. ما هذا؟ خيمة كبيرة أمام البيت، عن بُعد لمحت أناسًا يخرجون ويدخلون إليها، ثمة نواح يأتي من بعيد، غرست جسدي ثانية في مكانه بعد أن تقدمت قليلاً وحدقت جيدًا..

رأيت قطعة سوداء في منعطف الشارع، قرأت اسمه، كان مكتوبًا باللون الأبيض؛ باسل عبد الحميد حمدي، أحقًا ما أرى، قرأت

الاسم ثانيةً فوجدته: فارس عبد الحميد حمدي.. توزع نظري وتاه في كل الزوايا، باسل عبد الحميد وفارس عبد الحميد، وليس باسل عبد الحميد حمدي.. جسدي يتهاوى، جسدي يموت، قوة هائلة صدمتني في لحظات، أحسست إني صرت شطرين، رأيت شطري الأول يتقدم بخطوات ثابتة نحو الخيمة، يدلف إليها، يضيع بين الناس الذين استقبلوه بود وحزن، أما الآخر فقد تحول إلى كتلة من غضب ودم ثم مضى من حيث أتى، غارقًا في شحوب المساء الشفيف..

٥ -١ -١٩٨٨

دموع في شارع مزدحم

داهمته موجة ضجر عاتية، اجتاحته على حين غرة بلا مقدمات، رفع جسمه اللحيم بصعوبة من الكرسي الذي كان يجلس عليه، تجاوز باب المحل، اتكأ على جانب السيارة العتيقة التي تقف أمام باب محله، شملت نظراته الشارع المزدحم بالناس والباعة وأعداد السيارات الواقفة والمنطلقة على جانبي الشارع، موجة الضجر مازالت تغطيه وتسيطر على كل وجوده..

فجأة فتح عينيه على سعتهما، ثم أغمضهما بسرعة، وعاد ثانية يحدق في الوجه الذاهل القادم من تخوم الذكريات القديمة، تساءل باهتمام ممزوج بمشاعر فرح بدت تنتشر بين طيات مشاعره المحتدمة، من أرى؟ عبد المنعم، أيعقل هذا؟! أين اختفى كل هذه السنوات الطويلة، ثم ما هذا الذي أراه.. رجل شاب شعره، وزاغت نظراته وتهدلت أكتافه، ترى هل يعرفني؟ يبدو أنه ذاهل عن كل ما يحيطه، تحرك من وراء باب السيارة، وقف أمامه قاطعًا عليه الطريق، هتف بفرح واندهاش:

– عبد المنعم!

رفع الرجل رأسه بسرعة وكأنه فوجئ بالموقف، صاح كمن بوغت:

- من.. من؟

سأله ثانية وابتسامة حب تملأ الوجه الكبير:

- ألا تعرفني! أهذا معقول يا عبد المنعم؟!

صمت الرجل قليلاً ثم قال برجاء:

- دعني أراك، فبصري لا يساعدني..

اقترب منه، فتح عينيه على سعتهما كأنه كان في إغفاءة عميقة، وعاد يقول بصوت أكثر وضوحًا وثباتًا:

- من أنت؟ لا تؤاخذني، أشياء كثيرة في هذه الدنيا لم أعد أعرفها.

- قبل أن أقول لك من أنا تعال معي لنجلس قليلاً من الوقت، هذا محلي.. تفضل، شاي أم بارد؟

رد بصوت هامس:

- دعني أجلس أولاً، والشاي أفضل..

جلسا على كرسيين متقابلين تفصل بينهما منضدة صغيرة، نثرت عليها بعض قطع غيار سيارات، قال مجاملاً:

- الله بالخير..

رد عبد المنعم بود:

- الله بالخير عيوني..

- عبد المنعم اسمعني جيدًا، منذ عام ١٩٥٣ فارقتك، وها أنا ألتقيك بالصدفة ثانية وكأني أرى بداية صباي وشبابي.

أجابه مرتبكًا بعض الشيء وبرجاء واضح:

- آه.. أرجوك قل لي، من أنت؟

- عبد المنعم.. بعد أن نشرب الشاي، سوف اسألك نفس السؤال، من أنا؟

- دعني أراك جيدًا، مازال وجهك غريبًا عني، لكن أحس بك قريبًا مني، ففي صوتك شيء يذكر بالماضي، ماذا قلت؟ عام ١٩٥٣؟

تنفس بعمق ثم ضحك بهدوء، ارتشف شايه بسرعة وعاد يقول وكأنه يحدث نفسه:

- سنة ١٩٥٣.. ذلك تاريخ يبدو بعيدًا لعينيَّ المتعبتين، اسمع يا أخي.. منذ خمس سنوات أصبت بداء النسيان، أشياء كثيرة وأشخاص لم أعد أتذكرهم، شيء واحد لا أنساه؛ أولادي الأربعة، وهم الآن في الجبهة..

- الله يحفظهم..

هز يده هزة سريعة ثم قال مؤكدًا:

- نعم.. الله يحفظهم وكل الشباب الذين معهم.

- إن شاء الله تفرح بأحفادك.

رد بهدوء واستسلام:

- إن شاء الله.. إن شاء الله.. ولكن قل لي من أنت؟

- لن أقول لك الآن، وأجزم أنك ستتذكرني، ستتذكرني بالتأكيد..

- كيف لي تذكر ما قبل أكثر من عشرين عامًا، وأنا لا أذكر حوادث الأمس؟

خاطبه برجاء:

- عبد المنعم، لا تنزعج، قل لي من كان معك في محلة الطوب المقابلة لوزارة الدفاع؟

ضرب عبد المنعم جبتهه بسرعة، ثم رد قائلاً وكأنه بعث من جديد:

- إذن أنت من هناك، من المنطقة التي عشنا فيها الطفولة وأيام الصبا الحلوة، أحقًا ما تقول؟

- أنا لست من محلة الطوب، ولكني من منطقة (السيف) في الفضل، إلا أننا كنا نلتقي في محلتكم، هل تذكر رحومي؟

رفع بصره إلى سقف المحل، بدا عليه أنه يحاول أن يتذكر، همس:

- رحومي، نعم رحومي وآخر معه، اعتقد اسمه، اسمه...

قال كي يساعده:

- رؤوف..

تهلل وجهه، زالت عنه موجات الهم، ومضت عيناه سرورًا كما لو أنه طفل وجد لعبة جميلة:

- أي نعم.. رؤوف، رحومي ورؤوف، ولكن قل لي من أنت؟ ما اسمك؟

- لقد كنا نسبح معًا في نهر دجلة بجانب المستشفى، كنا نركض ونتصارع على صفحة الشاطئ الرملي.

رفع رأسه ثانية نحو السقف، ثبت نظراته على المروحة السقفية، قال وقد انتصب واقفًا:

- أنت.. أنت وهاب.

ثم هجم عليه، احتضنه، قبله في وجهه وجبهته، رجع إلى كرسيه ودموع تترقرق في عينيه..

- وهاب.. لقد أرجعت لي هذا اليوم أحلى الذكريات، اليوم تخلصت من النسيان، بل إني ودعته إلى غير رجعة، إنني سعيد بك ويملأني فرح لم أعرفه منذ فترة..

ثم تساءل مستنكرًا:

- وهاب أين جسمك الرشيق؟ لكن لا.. أين ذهب جسمي أنا الآخر، وماذا بقي منه؟

مسح دموعًا براحة يديه، ثم قام، تساءل وهاب:

- إلى أين؟

- تأكد سنلتقي على الدوام، لكنني الآن على موعد مع بعض الإخوان، نتوجه إلى البصرة.

تساءل وهاب:

- ماذا هناك؟

- اسأل عن الأولاد..

احتضن أحدهما الآخر، همس وهاب من بين نشيجه:

- في أمان الله يا عبد المنعم، تذكر أننا سنلتقي وعلى الدوام.

شيء من الحُب

دفع الباب الزجاجي الضخم ودلف مسرعًا إلى الداخل تاركًا خلفه جحيم الجو الذي يُشبه الحريق، توقف مليًا وهو ينظر إليها، كانت تجلس في نفس المكان الذي تعودا أن يجلسا فيه، وهي غارقة في مطالعة كتاب منفصلة عما حولها، جفف عرق وجهه تمامًا، احتضنت روحه وجسده تلك الرعشة الرائعة التي تمغنط وجوده كله وتشعره بسعادة لم يذق طعمها أبدًا، أحقًا نستطيع أن نحب بهذا العنف، ونحن في هذا الخريف المتأخر من العمر؟.

تساءل وهو يتقدم نحو مجلسها، رفعت نظرها عن الكتاب فارتسم في العينين الواسعتين لمعان خارق، ثم افترَّ ثغرها عن ابتسامة رائعة، وهمست:

– أهلاً حارث!

أجابها وهو يغرق في الكرسي الواسع الوثير:

– صباح الخير أيها الفرح المتألق أبدًا!

اتسعت الابتسامة إلى ضحكة أنيقة، ثم قالت:

– أرى أن الجو هذا اليوم يكاد أن يتحول إلى حريق.

- ركنت السيارة بسرعة ودخلت القاعة وكأنني أهرب من نار تلاحقني.

- الجو هنا أكثر من رائع.

- هذا المكان كان ملتقى الأصدقاء والمدعوين في مؤتمرات الثقافة وفي اللقاءات الأخرى.

ثم تساءل بعد حين:

- ترى ماذا تقرئين؟

- استهوتني شخصية (ألبرتي) في غابته الرهيبة.

أجاب:

- أوه.. إنه كتاب أكثر من رائع، ولا أدري لماذا أسماه الغابة الضائعة، الرجل الذي يتحول إلى أسطورة، يعتبر عمره غابة ضائعة، إذن فماذا نقول نحن؟

- أنت أيضًا كاتب معروف، أكثر من ثمان مجموعات في القصة والرواية والنقد والقادم أكثر..

- إنكِ تنفخين في رماد، لم أستطع الكتابة يا عزيزتي، لا أدري لماذا يهاجمني الخريف ويشعرني بأنني على وشك الرحيل.

- لا تقل هذا أبدًا يا حارث، (ثم ضحكت وأكملت) أنت شاب في العقد السادس.

- لولاك لما كان لهذا العمر أية قيمة، أنت كل شيء في حياتي هدى.

صمتت، حملقت في وجهه بعينيها المتسائلتين، ثم غضت بصرها وبدأت تتصفح الكتاب بتؤدة. رفعت بعد لحظات رأسها إليه، ثم شخصت بعينيها اللامعتين نحوه كما لو كانت تريد أن تخترقه:

- كنت أمني النفس بلقاء يعين روحي المتعبة الأيام القادم، ثم لا ألبث أن أجدك تنز مشاعر تزخر بالألم والتشاؤم..

صمتت قليلاً ثم ما لبثت أن استطردت متسائلة:

- من أين لروحي القوة التي تعينها على التجاوز؟

ظل صامتًا ثم جاء العامل بالشاي، وضعه أمامه، شكره وما لبث أن ارتشف شيئًا منه، ثم همس:

- هدى.. كل العذاب الذي يفترسني هو بسبب أنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا، وأرى أن تضحيتك من أجل حبنا تضحية لا مبرر لها، هناك أكثر من فارق بيني وبينك، هناك عمري الذي هو ضعف عمرك، هناك عائلتي والتي لا أشعر بالانتماء إليها منذ وقت بعيد، هناك الأهل.. أقصد عائلتك، كيف أستطيع أن أقابل والدك وهو صديق عمري إذا عرف ما بيننا؟

قالت بشيء من الحدة:

- أنت تلغي وجودي كله، أنا في الخامسة والعشرين، موظفة في موقع محترم، لي قناعاتي، وأنت أول هذه القناعات، لقد أحببتك

وأنا اعلم بكل ظروفك، فهل تراني مغفلة أو لا أعرف أين تقودني قدماي؟ كلا يا عزيزي، نحتاج إلى شيء من الشجاعة، هذا كل ما نحتاجه.

– لقد ناقشت ظروفي بكل موضوعية، ووجدتني لا أستطيع أن أتقدم خطوة واحدة، لا أريد أن أظلمك معي، اختاري طريقك وسيبقى لي أجمل ما في علاقتنا، ستبقى الذكريات والمشاعر النبيلة التي جمعتنا.

– إنني اسمع كلامًا غريبًا، الناس يتزوجون على هذه الأرض، وهناك من الفوارق بينهم الشيء الكثير.

– نعم هذا يحدث، ولكن...

ثانية يلفهما الصمت، فيعمد إلى كوب الشاي يحركه بين أصابعه، ثم ينظر خلال زجاج القاعة إلى واجهة الفندق الكبير، أزاح صوتها بحيرة السكون التي غطتها، خاطبته ووجهها يقطر ألمًا:

– هل أعتبر هذا أخر لقاء بيننا؟

قال كمن يتعبد:

– سأبقى مدينًا لك يا أجمل ساعات عمري وأحلى مشاعري.

وقفت بعد أن وضعت كتابها في حقيبتها وعلقتها على كتفها:

– إذن انتهى كل شيء بيننا!

- أرجوك هدى لا تقولي هذا، سيبقى ما كان بيننا من مشاعر مقدسة حتى أخر عمري.

لم يستطع أن يواجه نظراتها الملتاعة، رأى وجهها يحتقن بحمرة قانية، ثم وهي تتحرك قليلاً مبتعدة عن المكان جاءته كلماتها مرتجفة حانقة:

- يا للأسف.. كنت أظن أن...

قطعت كلماتها ثم استدارت تمضي في طريقها، ظل جالسًا ينفث دخان لفافته وكأنه يحرق ما تبقى له من مشاعر تحولت إلى رماد في لحظات خارقة..

٤- ١١- ٢٠٠٢

الهاتف

ثمل بخيالاته الجديدة القديمة، ورؤاه التي حولتها مشاعره المنصهرة إلى عوالم فاقعة الألوان كثيرة الظلال.. كان يجلس بجانب الهاتف ينظر إليه باسترحام كما لو كان يتوسل إليه أن يسرع في نقل النداء الذي ينتظر، وترتد عيناه ثانية إلى مجلة ترقد بين يديه يتصفح أوراقها بسرعة وقلق خوفًا من أن تستأثر باهتمامه موضوعاتها فتشغله عما ينتظره من عالم المشاعر التي تحرقه حد الهوس.

ليست المرة الأولى التي ينتظر فيها مثل هذا النداء، وإن تباعدت الأوقات بين واحد وآخر، فهو في كل موسم له صولة، يتصاعد غبارها حتى يغطيه وينتشر في فضاء البيت الوادع، ليبدأ صراع آخر طالما خرج منه ولأكثر من مرة مهزومًا يعاني خيبة ويطبب جروحًا لا دواء لها، هكذا كانت حياته ولسوف تستمر كما يريد، إنه التوق إلى علاقات جديدة تملأ عالمه بما يسره، ذلك العالم الذي يحسه غريبًا عنه بفراغه وسأمه وهمومه التي لا تنتهي..

"أنا ذاكرة مسافرة.. وعندما أحسُّ بالرتابة تطوِّق حياتي.. ابدأ بالبحث من جديد"، قالت إنها ستهاتفه قبيل الساعة السادسة، وهو

الموعد الذي يسبق عادة انصرافه إلى مجلسه المعتاد في مقهى يلتقي فيه بالأصدقاء، همس بسرور لينتظروا طويلاً، فلا لقاء هذا اليوم.

قطعت عليه تداعياته خطوات زوجته، جلست بجانبه، كانت تجفف شعرها بمنشفة تلف بها شعر رأسها الغزيز، فغمت أنفه رائحة عطر خفيف أيقظ جزءًا من اهتمامه بها، سألته بغير اكتراث:

- هل تنتظر أحد.. إن ساعة اللقاء بالأصدقاء تقترب.

كمن فوجئ قال بسرعة:

- آ.. نعم.. قد لا أخرج هذا المساء.. إنني تعب يا عزيزتي..

غرزت عينيها في عينيه، بدا له أنها تعرف كل شيء، بل إنها تقرأه ككتاب مفتوح، تتسلل إلى زوايا عقله، تنبش فيها ثم تعثر على ما كانت تبحث عنه، يا لها من امرأة، قالت له مرة: "إن زمن الاعتراف وتقبيل اليدين قد مضى، فإذا تكرر ما أكره منك لن يبقى لك شيء تبكيه..".

غض بصره.. كأنما كان يقول لها.. لا شيء أبدًا.. إنها إحدى الزميلات في قسمه تريد أن تأخذ رأيه في قضية تهم العمل! يا لك من ساذج ويا لها من نكتة، هذه اللبوة لم تعد تتقبل منك مثل هذه القصص والحكايات، تعرف في اللحظة المناسبة كيف تمزق أغلفتك لتستخرج منها الحقيقة، وأعرف أنها حبي الذي لا تعادله

أي نزوة، لكنه الحب الذي قتله الملل، وأطبقت عليه الرتابة.. اللعنة.. ماذا بوسعي أن أفعل الآن.. نبهه صوتها:

– هشام لماذا تحدق بي هكذا.. هل أنت في مأزق!

ضحك بلا معنى، حاول أن يبدو طبيعيًا، لكنه أحس بالضحكة تموت على ركام قلقه، شيء في أعماقه وخزه حدَّ الألم، إنه الهاتف، تمنى لو تعطل في هذه اللحظات، بل تمنى أن يصمت إلى الأبد، يحس بالضعف تمامًا، لا طاقة لي لهذه المرأة، نظراتها تستبيحني، تعريني، تنفذ إلى زوايا عقلي فتعرف ما تريد، في الوقت الذي تريد، دوى الصوت في أذنيه كالانفجار.. أمسكت بالسماعة وضعتها بهدوء على أذنها وهي تعاقبه بنظراتها كأنما تقول له أنا على علم بما يشغلك..

– نعم.. (ثم بفرح) أهلاً أم وسن.. قبل قليل كنت..

أحس أنه ينجو من حبل مشنقة، الأنشوطة قطعت في الوقت المناسب تمامًا وسقطت منها بكامل عافيتي، تحسس رقبته، ملأته موجة كبرياء عاتية، توهج فجأة كبركان يهدد بالانفجار، هل أخشاها إلى هذا الحد، قال لها مرة إنه لا يستطيع أن يحيا إلا هكذا، وأن لا فائدة من كل ما تفعل، ولكن ليتها تفهم، الحائط أكثر رقة منها، رباه متى يهدأ هذا الصراخ الذي يذكرني بالغربة.. وأنت يا وجيب القلب المليء بأحزان العمر، متى تنفض عنك ما علق بك من غبار الأيام وخطوطها السود..

- أم وسن تسلم عليك..

كمن يستيقظ من إغفاءة قصيرة.. رد عليها:

- الله يسلمك..

- لقد دعتنا لتناول العشاء معهم.. وخير البر عاجله..

هذا مغطس جديد.. أم وسن.. منذ متى لم يلتق بها، أم وسن جزء من ماض لم تندمل بعد كل جراحاته..

مضت باتجاه حجرتها.. رن جرس الهاتف ثانية، تردد بادئ الأمر لكنه مد يده بتثاقل واضح، قال ويده تمر على جلاد المجلة تقلب أوراقها، انتفض وهو يرد بصوت تعمد أن يكون واضحًا:

- ألو.. نعم.. لا.. الرقم خطأ..

إنها تسمعه جيدًا.. هذا ما أنا متأكد منه، رآها مقبلة.. أردف كانه يوجه الكلام لها:

- هذا زمن الأخطاء.. لماذا لا يتأكد الناس من أرقام الهواتف التي يطلبونها..

أجابته بابتسامة غامضة وعيناها تغمزانه:

- الحفريات مستمرة.. وخطوط الهاتف تتشابك أحيانًا.. هل هي فتاة؟!

رد وقد فوجئ بالسؤال:

- نعم فتاة..

- كانت قد طلبت نفس الرقم قبل مجيئك.. ألم تسألك إن كان هذا بيت أحمد..

بوغت تمامًا:

- آه.. نعم سألت.. وماذا في الأمر؟!

- إذن فالخطوط لم تعد متشابكة يا عزيزي هشام، والهاتف كما أرى يعمل بانتظام..

ويرتفع صوت الهاتف كأنه القدر.. هتفت وعيناها تعاقبانه:

- هشام.. دعه.. سأرد عليه..

أخذت السماعة بعصبية ظاهرة:

- ألو..

- ....

- نعم هذا بيت أحمد.. تفضلي موجود!

رمت سماعة الهاتف عليه.. أخذها منها بهدوء ثم وضعها مكانها فوق الهاتف، أمسك بيدها وسحبها إليه قليلاً محدقًا في الوجه الذي غلفته عاصفة غضب توشك على الانفجار، سحبها بهدوء إليه..

- دعني..

تشبث بها بقوة.. أحس بالجسم الذي تصلب كالرمح يلين قليلاً ثم يعود للجلوس بجانبه، تشابكت العيون في حوار غريب، قالا كل شيء في لحظات،ثم يغرق الزمن تماماً في بحر من الهدوء واللذة.

٦ – ٧- ١٩٨٧

القُبلة

استطال الوجه المستدير كالعادة عندما يفاجأ بأحد المواقف التي تستثيره.. عادت بسرعة إلى طبيعتها، كان الموقف سريعًا خاطفًا، بالنسبة لها لم تتوقعه، لقد صارت علاقتهما معًا هي وصائب مسألة طبيعية عند أهلها وأهله.. من عائلتين كادحتين.

والدها يبيع الخضروات وأبوه نجار، والعائلتان متفقتان على هذه العلاقة، على أن تتوج بالزواج بعد تخرجهما، لكن إكرام ذات الإرادة الصلبة كانت قد اتفقت مع صائب على أن تبقى علاقتهما في طور الصداقة البريئة بالرغم من حبهما، وبالرغم من خلواتهما المتعددة فقد احترم رغبتها، وتدله في حبها.. كانت حلمه منذ الصغر.

مرت هذه الأفكار في خاطرها بسرعة.. ما الذي وقع له وما هذا الطعم؟ دوار خفيف أحسته يأخذها.. ثم لم تلبث أن جلست على كرسي قريب، تعب مفاجئ لذيذ ثم لم تعد تذكر غير تلك اللحظة، تضاءل الزمن حتى صار تلك اللحظة.. وقف صائب غير بعيد عنها كالخائف، أراد أن يقول لها إنه لا يدري كيف حدث ذلك.. لكنه لم يستطع أن يفتح فاه، كأنه فقد القدرة على النطق وهي لم تعد تنظر

إلى شيء محدد.. ثم تركزت نظراتها في أظافرها الطويلة، وبدأ لهاثها يخفت شيئًا فشيئًا، احتاطت كثيرًا لموقف كهذا.. لكنه انقض عليها كالقدر..

أحست سعادة في أعماقها لكنها قررت شيئًا.. أغرتها اللحظة بأن تمارس عليه نوعًا من التأثير المشوب بالظلم.. تأوهت وسمعت هاجسًا يقول آه يالطعم تلك اللحظة.. التفتت بسرعة وبغضب ثم سألته:

– ماذا فعلت..؟

بهره السؤال لم يتوقعه.. ولم يخرج بعد من دائرة ذهوله والسعادة التي ملأت نفسه، انثالت عليه أفكار خاصة إنه يعرفها.. سوف تعاقبه، إنه مقبل على فترة مقاطعة طويلة، تذكر محاولاته السابقة التي باءت بالفشل كأنها كانت كالحارس الذي لا تغمض له عين.. عادت ثانية تسأله بعد أن طال صمته:

– أقول ماذا فعلت.. ألم نتفق على أن يبقى كل ما بيننا على وضعه، نحن في معركة وماذا أقول.. أنت لص!

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، فقال كأنه يداعبها بعد أن تخفف من جو الموقف:

– سرقت ما كان بعض الحق لي.. وكان يجب أن آخذه منذ زمن بعيد، لكن رأسك الجامد..

قالت تقاطعه وهي تفتعل هياجًا عصبيًا:

- ليس لك حق في ذلك.. ينبغي أن نصلح الموقف..

رد بخوف:

- نصلح الموقف! ماذا أفسدنا حتى نصلحه؟

ثم بابتسامة حلوة:

- ثم ألا تخبريني كيف نصلح ذلك الموقف الذي أصبح ماضيًا..

- لقد أفسدت تاريخًا بكامله.. علاقتنا لم تكن كالعلاقات الأخرى.. إنها نسيج خاص بنا.. ولقد حددنا معالمها أكثر من مرة باتفاقنا معًا، لماذا خرجت على الاتفاق؟

- هذه أشياء كما تعلمين لا تخضع لاتفاقات، العواطف أكبر من أي اتفاق، ثم لماذا هذا الإلحاح على شيء يعتبر في حكم العواطف طبيعيًا، فكيف إذا ما كان بيني وبينك؟

- كل ما تقوله لا يطابق الحقيقة.. الموقف لم يكن طبيعيًا لأنك لم تأخذ رأيي به وهنا أنا أحتج وأطالب بإصلاح ما فسد..

احتار.. ماذا يقول.. هذه المرة تبدو كاللبوة حلوة عيناها تبعثان لهبًا فيه، عقله يضم كل الصورة، وقلبه يتحرق شوقًا إليها، صديقة العمر والحبيبة التي لا تفارقه طوال اليوم سواء كان ذلك في الجامعة أو خارجها، تفكر قليلاً ثم قال لها مداعبًا:

- عزيزتي إكرام أنا مستعد لإصلاح الخطأ بارتكاب نفس الخطأ..

- لا تمارس هذرًا

- إنما هي قبلة يا عزيزتي و...

قاطعته بحدة:

- إنما هي خط داهم وخطأ فادح، وعلينا أن نتفق على طريقة لإصلاح ذلك الخطأ، لا تنس إنك أنت الذي بدأ ذلك وبطريق الغفلة.

ارتفع صوته ضجرًا:

- ماذا وقع.. كان من حقي تقبيلك، فلماذا تحملين الموقف أكثر مما يحتمل؟

التفت إليها، وجدها ثائرة فعلاً وفي بياض عينيها حمرة خفيفة استوعب الموقف مرة واحدة.. بعد أن كان خائفًا منه اقترب منها كثيرًا عيناها جميلتان حتى الثمالة.. قال بعجلة وقد فاجأها:

- إكرام سوف أعالج الموقف بما يرضيك..

أطبق عليها بسرعة.. جذبها بحب إلى صدره، أحس بحرارتها تلمس الطريق إلى شفتيها بعد أن مر على جيدها.. أحسها تتمرد في البداية، ثم استكانت وهدأت، رفع وجهه قليلاً ثم همس في أذنها مداعبًا:

- هل يرضيك هذا العلاج؟

ثانية رجع إليها.. وقد تلاشى كل شيء من حوله إلا كلمة صغيرة.. حلوة.. كنجمة تلمع في سماء رائعة..

أحبك.. أحبك.. أحبك..

٢٥- ١٠- ١٩٨٢

حمدان.. والليل.. والخطر

انحدرت الشمس ببطء نحو مستقرها، وبدأ الفلاحون يرجعون إلى بيوتهم بعد عمل صعب مضني استهلك جل قواهم، كان الجو يميل إلى البرودة والسماء تعكس لونها الرمادي على كل شيء، فيبدو الجو العام للقرية وكأنه لا يبعث الراحة والاطمئنان في النفس، كما أن ثمة مشاعر مضطربة تمور في أعماق كل رجل وامرأة وطفل..

المياه مازالت على قوة انحدارها في النهر.. وتبدو أحيانًا وكأن عمالقة مختفون وراء تلك الموجات الهادرة.. كان النهر يتدفق بالماء كالشلال الذي ينحدر من مكان عال، ورغم كل ما بذله سكان القرية من جهد في تقوية السد وتمتينه فإن شعور بالقلق يرتسم على الوجوه السمر..

إن مسير المياه في النهر وتكسر بعض الموجات الكبيرة على ضفتيه واشتداد الرياح المصحوبة بزخات المطر يؤثر في قوة السد ويجعله معرضًا للانهيار في بعض الأماكن، ومع كل طاقات الخوف والاضطراب فقد أفنى الجميع أنفسهم في إضافة الكثير من أكياس الرمل والبواري والحجر إلى السد، فأصبح وضع السد يبعث على الاطمئنان..

وفي أحد الأكواخ المترامية هنا وهناك كان أبو حمدان يجلس بقرب الموقد الذي امتلأ بقطع الأخشاب المحروقة، كان الدخان يملأ جو الكوخ ثم يتطاير مع الهواء فلا يبقى منه شيء، كأنه يصبح جزءًا من لون السماء الرمادي الداكن، وكان حمدان جالسًا كعادته وبيده كتابه، يرفع نظره بين الحين والآخر إلى أبيه يستفسره بعينيه عما سيحدث لو انهد السد أو حدث شرخ كبير فيه تتسرب منه المياه لتغرق القرية وتدمر المزروعات وتذهب بأحلام سنة كاملة، تلك الأحلام التي تملأ عقول الفلاحين وعوائلهم في بداية ونهاية كل موسم زراعي.

كان خيال حمدان يعمل بسرعة وهو يتصور الكارثة وقد وقعت، سيحمل أخته الصغيرة بين ذراعيه، وسيمسك بيد والدته ووالده، ويندفعون بعيدًا عن مياه النهر الهائجة، ولكن إلى أين؟، إن المياه تستطيع اللحاق بهم وإغراقهم، وفجأة تذكر ما سمعه صباح هذا اليوم في الصف عندما قص عليهم المعلم قصة بلد بعيد جدًا عن هذه القرية، وكان يعاني من ويلات ومآسي الفيضان ما تعانيه هذه القرية، تمنى لو ركب دراجته الهوائية في هذا الليل ليذهب إلى المدرسة ويسأل المعلم أن يعيد له تلك القصة التي استحوذت على تفكيره.

التضحية واجبة كما قال المعلم لهم، التضحية في كل عمل كبير أو صغير، ولا توجد أمة من الأمم تستطيع أن تبني مجدها بدون

تضحيات، كان صوت الرياح الذي بدأ يشتد ينذر بوقوع الكارثة، وسمع حمدان أصوات رجال ونساء يسيرون نحو كوخهم.. يا إلهي.. هل وقع ما تصوره الخيال، وارتفع صوت أحد الفلاحين يدعو والده للخروج معهم لحراسة السد..

قام بسرعة ثم تشبث بيد والده وكأنه يقول له سأذهب معكم لحراسة السد والمحافظة على القرية.. وفي الطريق، وبين المشاعل؛ لاحت لحمدان وجوه الفلاحين الطيبة، وتوالت في ذهنه أحداث تلك القصة التي سمعها صباح اليوم من معلمه، أن صبيًا في إحدى الدول البعيدة التي كان يتهددها الفيضان قد فعل معجزة، لقد أحدثت تيارات المياه الهائلة ثغرة صغيرة في السد المحيط بعاصمة تلك الدولة، وصادف أن كان هو بالقرب من المنطقة التي يتهددها، فأدخل يده في المكان الذي تأتي منه المياه، وأسند جسمه عليه، وهكذا أنقذ بلده من دمار محقق بعد أن ضحى بحياته، تمنى أن يكون كزميله الذي ضحى بنفسه من أجل بلده..

بدت السماء مشحونة والرياح تحمل قطرات المطر أول الأمر، ثم ما لبث أن تحول إلى سيول، كان الرجال يسيرون بثبات نحو السد واتفقوا على أن يراقب كل واحد منهم قسمًا من السد، وعند حدوث ما ينم عن خطر يستطيع أن يخبر الآخرين بالأمر فيهرعوا إليه..

كان حمدان يراقب مع والده منطقة السد التي كلف والده بالإشراف عليها، كان الجو باردًا، والمطر مازال ينهمر بغزارة، والريح تشتد، رأى والده وهو يمسك مسحاته ينكفأ على وجهه وتأخذه غفوة نوم، أحسَّ حمدان بشجاعة كبيرة وتحول إلى والده يهزه، لكنه رجع إلى مكانه عندما رأى أن المكان ملأته المياه..

تذكر القصة التي سمعها صباح اليوم في المدرسة، وبسرعة مد يده في المكان الذي تدفقت منه المياه، ثم أسند جسمه الصغير عليه وهو يتشبث بالأرض التي أحبها بروحه وخياله، أحس حمدان أن المياه بدأت تقل وتقل شيئًا فشيئًا، وأن المطر ما عاد على شدته كما كان، وأن الريح بدأت تعتدل، وثمة أصوات بعيدة عنه تتعالى، ثم تتلاشى.. ويسود الصمت كل شيء..

صورة من الماضي

فوضى..!

مشاعري فوضى، وحبي فوضى، وحياتي.. كانت ومازالت فوضى، كل ما يحيطني فوضى، وأحس أني فقدت القدرة على استقراء واستطلاع الأسباب التي تكمن خلف هذه الفوضى، باستثناء بعض الصور الباهتة التي تدور بشكل سريع وعنيف، قد تكون هي السبب، لكن بالتأكيد هناك ثمة أشياء أخرى تكمن أيضًا خلف هذا الضجيج، وأنا لم أعرف حقيقة حياتي بعد.. بالرغم من كوني رجلاً متزوجًا وأبًا لطفل أعشقه!

آه.. يا لطفلي المسكين، إن مصيره مرتبط بهذه الصور الباهتة، بهذه الأسباب التي لم أعرفها بعد إذ، ذلك بالتأكيد شيء يدمي مشاعري، ويلطخ بالسواد قلب رجل تتقاذفه معركة رهيبة على جبهتين، جبهة يقف على أرضها ابني الصغير المريض، والجبهة الأخرى يقف على أرضها.. آه.. ماذا؟ ماضٍ مشوه كئيب.. شوهته أحلام سوداء، عندما كنت أعيش في جو مظلم أسود، ثم تبقى مشاعري هكذا.. ثائرة.. مزمجرة، تبحث لها عن مخرج، ذلك بالتأكيد شيء يحيرني، بل يقربني للجنون..

هناك في الغرفة الأخرى ولدي يصرخ متألمًا، وزوجتي تبكي لصراخه، ينفطر قلبها ليذوب في دموعه الصغيرة البريئة، وأنا لا أجرؤ على الذهاب، لم أحدد موقفي بعد، وصراخ ولدي يذوب في أتون أفكاري ومشاعري، مشكلة إذن.. مشكلة ترتبط بواقع ذاتي، واقع يتصل بي فقط، بماض انتهى، لكن شيئًا من بقع لا أعرف لها لونًا وخيوط مقطعة صغيرة بقيت مترسبة في الأعماق، ومن بين هذه البقع، وتلك الخيوط ينطلق صوت رهيب، أحس بقشعريرة، تقدم.. مما تخاف؟ ابنك مريض والصيدلية قريبة، ثم أنت زوج وأب لطفل، تقدم.. لا تخف، واجه ماضيك إذا كنت لا ترهبه.. تقدم.. تقدم..

ويمضي الصوت يعذبني.. كأنه ألم أعاني منه أنا الآخر..

تصورت الحجرة التي كنت جالسًا فيها أحصد مشاعري، تدور وتدور، ثم أحسست دوارًا وصداعًا فقمت هائجًا إلى الخارج، رأتني زوجتي عندما اندفعت من باب الحجرة، فوقفت مشدوهة حائرة، وفي الطريق تساءلت بخوف.. إلى أين؟! إلى المقهى.. كلا.. إذن إلى السوق.. ثم إلى.. إلى.. الصيدلية.. هناك يكمن ماضي الذي لا أريد أن أرى له أية صورة، أو أي خيال يمكن أن يعيد إلي بعض خيوط من الماضي، تقطعت وتناثرت فتات في أعماق ذاتي، ليست هذه المرة الأولى التي أعاني من موقف كهذا، فعندما أحتاج الدواء أضطر إلى ركوب إحدى السيارات المتجهة إلى بعقوبة، ومن هناك

أبتاع الدواء، إلا أن المشكلة الآن اختلفت تمامًا، أنا بحاجة للدواء لأن صحة ولدي تسوء، وتسوء بسرعة، دون أن أستطيع أن أحدد ما إذا كنت سأذهب إلى بعقوبة..

هذا يعني دخول ولدي منطقة الخطر لأن الوقت لا يكفي، أو أن اتجه إلى الصيدلية القريبة لأبتاع الدواء.. هذا سخف.. هل يمكن لهذه المشاعر التي تندلع بقسوة ووحشية أن تمنعني من نجدة ابني.. فلذة كبدي.. هل أمتنع بسببها؟!

شعرت بضيق وأنا أهتف في سري: "لو كانت هناك صيدلية أخرى لاختفت المشكلة! آه.. لو كنت أستطيع الذهاب إلى بعقوبة بالسرعة المطلوبة لما ترددت، أما أن اذهب إليها وهي في صيدليتها.. فهذا شيء لم أقرره بعد.. على الأقل لا أستطيع أن أجد له حتى الآن حلاً.. وعندما أذكر حالة ولدي أكره نفسي، وأحقد على ماضي، لم هذا المأزق الذي وضعت نفسي في صميمه، لكن سؤالاً يتسرب من خيالي ليهتف بي: "كيف ستقابلها بعد سبع سنوات، لم ترها هناك بعد لقائنا الأخير.. بعد سبع سنوات مضت هي خلالها تخب في طريق اختلف عن طريقي، عندما رفضت أن تسير معي بعد قصة حب أجهدتني بدأت حوادثها ونحن بعد في بداية دراستنا الثانوية، لن أحاول أن أذكر آلامي في حينها، لكن ذكرياتها الصاخبة تعيدني قسرًا إلى الوراء.. وها أنا أعاني منها ثانية..

لقد أمضيت السنوات السبع الأخيرة من حياتي في حالة هرب من نفسي، هربت من كل مكان سارت فيه أقدامنا، تركت كل شيء.. مدينتي وبيتي وأهلي وسرت في طريق جديد.. ثم تعرفت بزوجتي، ورغم كل هذا لم أستطع محو صورتها من ذاتي، شيء واحد أعادني إلى حبها؛ عندما قال لي صديق مقرب مرة ونحن نتذكر قصتها، قال إنها امتنعت عن الزواج، يومها لم أنم، لماذا لم تتزوج؟ هل عذبتها صورتي بعد فراقنا الأخير؟ هل مازالت تحبني؟.

شعرت بضحكة تضغط فكي بقوة تريد الانطلاق، لكني كبحت جماحها، ثم ابتسمت من نفسي وأفكاري، وها أنا أتصورها وهي تبتسم عند دخولي صيدليتها، بل إنها ستضحك.. ستكون ضحكة منتصرة، ثم تسألني وهي لا تصدق أن ولدي مريض وبحاجة إلى الدواء، ستفسر الأمر حسب ما تمليه عليها مشاعرها في اللحظة التي تلتقي فيها العيون، ثم تتدحرج في ذهنها صور من الماضي وتقول:

- أهلاً أستاذ محسن!

وأرد عليها وأنا لا أسمع كلماتي بسبب قلقي وإحراجي:

- أهلاً.. شكرًا!

وتجيبني وهي تبتسم:

- خير.. أراك شاحبًا!

نفس الجرأة.. نفس الاعتداد.. ثم نفس القوة والتأثير الذي ينطلق من عينيها، ثم أغضُّ بصري وأنا أقول بصوت مرتجف:

- ولدي مريض وبحاجة لدواء!

وتعود الضحكة تتبعثر مع الكلمات وهي تقول:

- ظننت أنك أنت المريض وبحاجة للدواء..

ثم تجتاحني رغبة عنيفة في أن اسألها لماذا لم تتزوج كل هذه السنوات، وهناك من يتمناها، لكنني لا ألمح شيء يساعدني في تفسير رفضها للزواج، تبدو سعيدة.. دائمًا كذلك وأبقى أنا أجتر ضياعي وتمزقي وسط دوامة من الشوق والرهبة والخوف واللاشيء، ثم أمد نظري لأجد نفسي واقفًا أمام صيدليتها، ويقع بصري على القطعة المعلقة فوقها لأقرأ حروفها.. "صيدلية المقدادية"..

يعود الصوت الرهيب يلهب إرادتي بصيحاته النارية، "تقدم أيها المهزوز.. تقدم يا خائر القوى والعزيمة، أأنت أب؟ لا يمكن أن يكون بين ضلوعك قلب يشعر ويتألم.. تقدم.. تقدم.. تقدم!".

وأتلاشى مع الصوت، ثم أخطو إلى داخل الصيدلية بوجل، شعرت برجفة تعتريني، حاولت أن أتماسك، ثم رأيت عينيها تفتشان في وجهي وأنا يبتلعني صمتي، نسيت للحظات لماذا جئت، ولماذا أقف هنا أمامها.. رأيت وجهها يشرق بابتسامة ثم قالت وهي تقترب مني:

- أهلاً أستاذ محسن..

أجبتها وصوتي يرتجف ولا يكاد يسمع:

- ابني مريض.. جئت أبتاع دواء له..

تكبر الابتسامة لتصبح ضحكة وهي تقول:

- ظننت أنك أنت المريض!

٣- ١- ١٩٦٥

تعامـل

(١)

"علي أن أجد حلاً مع هذا اللعين قبل فوات الأوان"..

قال ذلك بصوت سمعه أبو رائد الذي كان يجلس بجانبه وهو يتهيأ لشرب شايه، خاطبه متسائلاً:

– أبو يوسف عن أي شيء تتكلم؟ هل هناك ما يشغلك؟ هل أستطيع أن أساعدك في عمل شيء ما؟

مد يده ليثبت حزامه على دشداشته الواسعة قائلاً:

– لا.. لا كنت أتكلم مع نفسي.

كان جو المقهى هادئًا إلى حد ما، ربما لأن الوقت كان يقترب من الثانية بعد الظهر، في هذه الآونة يغادر كثير من رواد المقهى إلى بيوتهم وتبقى حلقات لاعبي الطاولة والدومينو التي تسمع أصوات قطعها وهي ترتطم بالمناضد التي عليها، مختلطة بأصوات ضحكات محشرجة أو أصوات توسلات تناشد الجرسون أن يأتي بما يريد اللاعب.

وقف أبو يوسف أمام عدة الشاي في أقصى المقهى، ودار وجهه حيث رد السلام على أحد القادمين، بدأ يستعد ليملأ استكان الشاي

لكي يقدمه إليه، عندما رجع ثانية جلس على كرسي بجانب الباب التي تفتح على غرفة صغيرة، كان يستعملها أبو يوسف كمخزن وأحيانًا ينام فيها إذا تجاوز الوقت منتصف الليل، لمحه خلال زجاج واجهة المقهى وتساءل:

- أليس له أهل؟ أم.. أب يسألون عنه أو يهتمون به، كيف يتركونه ضائعًا في الشوارع في هذه الظهيرة القاتلة الحر؟ أجزم أن هذا الطفل سيكون مجرمًا خطيرًا في المستقبل، علي أن أسلك معه طرقًا جديدة كي أصادقه وإلا..

لمحه يدخل المقهى فأشار إليه، تقدم الطفل نحوه ووقف أمامه:

- كيف الحال يا هاشم؟

قال أبو يوسف فرد عليه الطفل:

- ماذا تريد؟

ضيق أبو يوسف عينيه وتصفح هذا الوجه الغريب، رأى عينيه تدققان النظر في كل شيء أمامه، وجهه أسمر، لفحته شموس قاسية فبانت آثارها واضحة على يديه وصفحة وجهه، كان شعره أشعثًا ومنامته ممزقة في أكثر من مكان..

- هاشم، هل تشرب شايًا.. سأصب لك...

قاطعه:

- لا.. أريد حامضًا.

- اجلس.. سأصب لك استكانا من الحامض..

ارتفع صوت من أقصى المقهى:

- أبو يوسف.. شايك عيني شايك..

رد عليه:

- لحظة من فضلك.

- هاشم.. متى يبدأ الدوام في المدرسة؟

رد الطفل بلا مبالاة واضحة:

- لا أدري..

ذهب أبو يوسف ليقدم الشاي للزبون الجديد ثم رجع مسرعًا، خاطب الطفل:

- اسمع هاشم، هل تعمل في المقهى تنظف الأرض والمناضد وسأعطيك...

رد عليه بغضب:

- لا أريد أن أعمل عندك.

- أنت مثل ابني.

رد عليه ثانية:

- ولماذا لا يعمل ابنك معك؟

لعن أبو يوسف هاشم في سره..

- إذن لماذا ترمي الحجارة على المقهى؟

قال الطفل باستغراب:

- أنا لم أرمِ أي حجارة نحو المقهى..

- آه.. يا ابن اللعينة.

قام هاشم يريد الخروج فقال له أبو يوسف:

- كن عاقلاً وسوف تفتح المدارس وتذهب لتكمل دراستك، أنت في أي صف يا هاشم؟

- في الصف الرابع.

أي مدرسة أيها اللعين تستطيع أن تربيك وأي معلم يستطيع أن يتحمل عدوانك هذا؟.. كانت مشكلة أبو يوسف أن هاشم يرمي الحجارة على أي شيء أمامه، بل وأحيانًا يستعمل مصايد من الخشب الصغير ليرمي بها من يشاء دون اعتبار لكبير أو صغير، وكم من مرة أصابت حجارة صغيرة واجهة المقهى أو رأس أبي يوسف، وفي أكثر من مرة كان أبو يوسف يلحق بالطفل ويعنفه وأحيانًا، يمسكه من أذنيه وعندما ضربه مرة قال له هاشم:

- سوف أعلمك..

كانت فرصة جيدة أمامه ليحسن علاقته ولكنه انصرف إلى زبائنه وإلى مقهاه.

• • • •

(٢)

المساء يتثاءب بكسل والمقهى يضج بالجالسين أو الخارجين أو الذين يقفون ببابه، كان أبو يوسف يقدم شايًا لأحد رواد المقهى عندما صاح:

- آخ..

نظر إليه فوجده يبتسم ابتسامة شيطانية، قال محبطًا:

- آه.. لو أستطيع أن أكسر ساقيك يا هذا، ولكنك لن تفلت من عقاب قريب..

حك رأسه في المكان الذي ضربته الحجارة الصغيرة ومضى يلعن هاشم، والحظ الذي جاء به وعائلته إلى هذه المنطقة.. نظر أبو يوسف إلى مصابيح الكهرباء، ووجدها تتوهج بقوة تارة، وتضعف تارة أخرى، قال في نفسه علي أن أحضر الشموع الآن خوفًا من انقطاع التيار الكهربائي المفاجئ، في هذه الآونة انقطع التيار الكهربائي، أشعل أبو يوسف شمعتين كانتا مثبتتين على منضدة أمامه، على وهج النار المتراقص نظر إلى باب المقهى، فرأى الطفل يدخل إليها ثانية، أشار له:

- اخرج..

لكنه ظل يتقدم نحوه، وقف أمام المنضدة، استدار أبو يوسف وأمسك بأذنيه:

- لماذا تضربني يا لعين؟ إن فعلتها ثانية سوف أقطع أذنيك.

بسرعة مفاجئة نفخ الطفل على الشمعتين فأطفئهما ثم رفع إحداها ورمى بها نحو قوري الشاي الكبير وانفلت مسرعًا نحو باب المقهى، بعد دقائق عاد التيار الكهربائي فأضاء نور مصابيح المقهى ثانية، ظل أبو يوسف يتميز غضبًا لا يساوره أي شك من أي عقابًا شديدًا لابد أن يناله هذا الطفل كي يوقف عداونه.. كان عليه أن ينظف القوري من الشاي الذي أتلفه الشمع وأن يشرف على خدمة رواد المقهى.

• • • •

(٣)

كان أبو يوسف يراقب باب المقهى بحذر شديد وهو يتطلع إلى اللحظة التي يدخل فيها هاشم إلى المقهى، قرر أن يعاقبه، رآه يستعمل مصيدته فقام من مكانه وخرج من باب المقهى، رآه الطفل يتقدم نحوه إلا أن أبا يوسف توقف ثم رجع إلى مقهاه، خشي أن يمسك الطفل في الشارع لئلا يتعرض إلى لوم الآخرين، عليه أن ينتظر أن يدخل هاشم إلى المقهى ليعاقبه العقاب الذي يستحقه، رآه يدخل إلى المقهى وهو يحمل بيده علبة سجائر مفتوحة يعرض

على الجالسين لفائفها كي يشتروا منها، توجه أبو يوسف نحوه وقال له:

- اخرج..

نظر إليه الطفل ثم قال له:

- أريد شايًا..

غمغم أبو يوسف "هذه فرصتي، تعال يا عزيزي، تعال معي ستشرب الشاي الذي يزهق روحك وروح الذين خلفوك"، سحبه إلى الغرفة الصغيرة التي يستعملها كمخزن لعدة الشاي، سد عليه الباب، ضربه حتى كلَّ أبو يوسف، نظر إليه فوجده واقفًا لا يبكي ولا يصرخ، لا يتكلم، بصق في وجه الطفل وسد الباب عليه وخرج، جلس أبو يوسف على كرسيه متعب وهو ينظر إلى باب الغرفة الصغيرة، قال مخاطبًا نفسه "أخشى أن يفعل شيئًا داخل الغرفة، يكسر استكانات الشاي أو يفتح كيس السكر ويغطي به الأرض"، قام متثاقلاً وهو يتأفف أيها الكلب، فتح باب الغرفة الذي أغلقه قبل قليل بالمفتاح فوجد الطفل مقرفصًا في زاوية منها، خاطبه بلهجة لاذعة وآمرة في آن واحد:

- هيا اخرج، إذا فعلت في المرة القادمة ما يسيء سأكسر رأسك، هيا اخرج.

قام الطفل بهدوء، توجه نحو باب المقهى ووقف منتصبًا بثقة كاملة، أخرج مصيدته ووضع فيها نواة صغيرة، رمى بها نحو أبي يوسف ثم استدار ومضى لا يلوي على شيء.

٣- ١٢- ١٩٩١

تــوق

هذه لحظات تتعرى الأعماق عن أسرارها، تنضو عنها أسمالها القديمة البائدة، الآن ترحل الأيام الكئيبة وكل الاحباطات التي ترسبت بين خيوط نسيج الروح، تغادر مهزومة تطاردها زغاريد منطلقة من خيالات قديمة وجديدة، كانت تشده إلى قاع لا قرار له كما لو أنه يوغل في حلم رائع، ما الذي يحدث؟ أبسبب تلك النسيمات التي لامست وجهه، نسيمات باردة كأنها الإبر تتغرز داخل جسده المتعب، ياللفرح المفاجئ، يأتي ويروح بلا مواسم أو مواعيد كما المرض، أو الحب أو...

ابتسم كأنه يعتذر لنفسه أو لشخص ما يقف قبالته، عن هذا الذي فاجأه في لحظة انبعاث مفاجئ! قفزت إلى ذهنه جملة كان قد قرأها منذ زمن، يبدو له الآن بعيدًا أجرى عليها تعديلاً بسيطًا، ردد بصوت مسموع لم تغادره تمامًا خيوط كئيبة قديمة علقت به: "يا للحياة من مهنة شاقة".

مضى إلى سيارته الواقفة على مبعدة منه في الممر المفضي إلى الباب الحديدي المفتوح على مصراعيه، مد يده إلى جيبه يبحث عن مفتاح التشغيل، أصغى إلى صوت قطرات مطر، تناثرت حوله بغتة ملأت روحه بارتعاشات غامضة، مشاعر غريبة انبثقت في

تلك اللحظات كما تتفجر عين ماء من أعماق الأرض، دون مقدمات أسلم نفسه لتلك اللحظات العارمة، همس: "أنا بحاجة لشيء من هذا الجو الساحر".

انسابت بعض قطرات المطر على جبينه ووجهه، أحس بالبرد ينفذ نحو عظامه، ليلة باردة وأنت وحيد هنا، ووحيد هناك، ليس لديك سوى الأم التي تنتظر الآن وتتألم كما هي العادة، وخيبة قديمة تلتمع في عينيها الذاويتين وسؤال فقد معناه، سؤال قديم وجديد رددته عليك أكثر من ألف مرة ومرة ثم استكانت مهزومة، تجتر مرارتها وخيبتها بسببك؛ متى تتزوج يا بني؟ متى تتزوج يا ولدي؟ متى.. متى أرى أبناءك وأضمهم إلى قلبي وتلتمع في العينين دموع، أخاطبها وأنا أبعد بصري عنها، أمي، سيدتي، عزيزتي.. لا تحلمي، أنتِ تعلمين جيدًا وتعرفين لقد اخترت بعدها الوحدة والحزن والفراغ، أنا من النوع الذي يختار مرة واحدة، أي أن تكون أو لا تكون، لقد حسمت المعركة مع نفسي بقناعة راسخة وإرادة لا تتغير.

قطعت تداعياته دخول سيارة مسرعة إلى الممر، وتوقفت خلف سيارته، سيارة فارهة تشع في ذلك الجو المضبب كأنها جوهرة كبيرة نزل منها شاب محتقن الوجه محمر العينين، تقدم منه ووقف أمامه كالمارد:

- مساء الخير..

رد بوجوم وهو يتشمم رائحة الشراب النفاذة:

- أهلاً مساء الخير..

تساءل الشاب وهو يغرز عينيه في وجهه المتبرم:

- هل هذه عيادة الدكتور إياد يوسف؟

قال يجيبه بنبرة ثابتة:

- أنا هو، أعتقد أنك لم تقرأ اللوحة، تفضل.

أجابه بصوت تخالطه رعشة واضحة:

- نحن بحاجة ماسة لك يا دكتور!

- ها أنت ترى أن العيادة أغلقت والساعة تجاوزت التاسعة وأنا متعب تمامًا.

في هذه اللحظات، نزل شابان آخران من السيارة أحدهما يحمل جسمًا ملفوفًا ببطانية، بدا منفعلاً ومهزوزًا، أما الآخر فقد وقف بجانبه ينتظر حدوث حركة ما، شملت نظراته الشباب الثلاثة، طفق يردد في أعماقه: "يالهذا الجو الذي ينذر بالمفاجآت!".

تساءل بحزم:

- ما الأمر؟

قال الشاب الذي يحمل البطانية بكلتا يديه وفي تضاعيف صوته ما يدل على الهياج:

- الأمر جلل يا دكتور ونريد مساعدتك، جبسي في خطر أكيد!

أكمل صاحب الأنفاس المخمورة:

- لقد دهسته سيارة، سنعثر على سائقها حتمًا، أما الأن فهو بحاجة إلى علاج سريع.

خاطبهم بهدوء:

- إذا جئتم غدًا صباحًا أو مساءً سأكون..

قاطعوه بصوت واحد كأنهم اتفقوا عليه:

- الآن يا دكتور.. الآن، لا يوجد متسع من الوقت ليوم غد!

أردف الشاب المخمور:

- عليك أن تقوم بواجبك، ثم خذ المبلغ الذي تريده.

هكذا إذن، ليس أمامك إلا الإذعان لرغبتهم، ها أنت محاصر وعليك أن تتصرف بحكمة، استدار نحو باب العيادة، فتحه ثم دخل، أضاء المصابيح تباعًا، دخلوا بعده وأولهم حامل الجسم الملفوف بالبطانية خاطبه بلهجة آمرة:

- ضعه هنا على هذه المنضدة.

قال ذلك وهو يرتدي قفازيه ثم أكمل:

- إذا استطاع الوقوف فقد يكون ثمة رجاء، أما إذا...

قاطعه الشاب بصوت مسموع وكلمات سريعة وهو يضع حمله على المنضدة، ويكشف أطراف البطانية عنه:

- حاول يا دكتور، حاول رجاء..

ها هو الكلب أمامك.. دقق النظر فيه، إنه كتلة مدماة، فم مفتوح.. لسانه يتدلى من بين فكيه، يتنفس بصعوبة ويغالب آلامًا لا تطاق

بالتأكيد، اعترف أنه كلب جميل بحق، عيناه براقتان، شعره الأحمر الطويل طرزته بقع الدماء الداكنة التي تناثرت على مساحات واسعة منه، مد يده يتحسس بعض مواقع من جسده، حاول أن يساعده على الوقوف، تساءل بصوت خفيض:

– ياللعجب.. مازال حيًا، آه.. آسف.. لا فائدة، كان بودي أن أفعل شيئًا..

تساءل الشاب المخمور:

– ألا تستطيع أن تخيط جراحه؟

– لقد نزف دمه، كسر عموده الفقري، كذلك ساقاه الخلفيتان، آسف.. فات الآوان، ثقوا لو كان ثمة أمل لما تأخرت.

خيمت على المكان لحظات وجوم ثقيلة، صمت داكن، صراخ صامت يكاد يمزق أوردتهم، تفحص وجوههم بنظرة سريعة رآها تنذر بالشؤم، في لحظة واحدة امتدت الأيدي نحو الكلب، رفعته بعناية، أخرج المخمور من جيبه أوراقًا مالية رماها على المنضدة التي تلطخت بدم الكلب، خرجوا بحملهم إلى الخارج من موقفه رأى سيارتهم تتراجع بسرعة نحو الشارع، ثم سمعها تهدر بعيدًا التفت إلى الأوراق التي لوثتها دماء الكلب هز رأسه، ثم خلع قفازيه ورماهما في سلة النفايات، غسل يديه وأطفأ المصابيح، أغلق الباب بهدوء ومضى إلى سيارته وأعماقه تضطرم بأحاسيس شتى.

كلمات في دائرة مغلقة

ها، ها، ها، ها

مسح براحة يده دموعًا علقت برموشه جراء ضحكة كبيرة ومستمرة أطلقها في لحظة فاجأته بقوة ولم يستطع أن يضغطها بين فكيه، كان قد نشر الرسالة أمامه، صدمته جملتها الأولى (عزيزتي الأخ)، رفع عينيه وأشاح بوجهه عن كلمات الرسالة، مازالت آثار الضحكة ترتسم على سمات وجهه بوضوح صارخ، همس:

- هل هذا خطأ مطبعي كما يقال؟ أم إنك نسيت لغتك الأم كما نسيت من قبل أشياء كثيرة كصلة الدم مثلاً، على كل حال اعترف أمام نفسي أنك وصلت قبل أن تصل، وأنك فارقت قبل أن تفارق وأنا أعلم الناس بك، كنت أنصت ونحن نأوي إلى حجرة نومنا لأحاديثك عن عوالم تريد لقدميك أن تطأ أراضيها، كذلك كنت اعرف جنونك سلفًا، وللمرة الثانية اعترف بأنني كنت وقتئذ اهزأ بكل ما كنت تقوله، بل وفي كثير من الأحيان اعتبرك شاذًا أو غير سوي، كنا مختلفين منذ اللحظة التي وعينا فيها عالمنا، كان عالمك بعيدًا كل البعد عن عالمي، خلفت وراءك ذكريات صغيرة نثرتها هنا وهناك، وبالرغم من كل آلام أمراضها مازالت الوالدة

تذرف ما تبقى لها من دموع، أحسب في أحيان كثيرة أنها ترثي نفسها بها، أما الوالد فهذا رجل لا نظير له، صمته أبكى الموتى في قبورهم، وآلامه لا تظهر على سمات وجهه إلا وهو يصارع لحظاته الأخيرة ثم ينتصر عليها.

سأكتب لك عن أشياء كثيرة كما طلبت في رسالتك، ولا أدري هل ستفهم ما أعنيه بكلماتي أم أنك ستهزأ بي وبها؟ ولا أكتمك فأنا أشك بأنك ستفقه ما أكتبه لك في هذه الرسالة.

عشرون عام ونيف هي عمر طويل، طويل جدًا لو قيس بأحداثه الجسام، كيف أستطيع أن أناقش أو أحصي أحداث عشرين عامًا مضت! لن أخدعك.. كنت ومازلت صادقًا معك، فأنا لا أخاطب أخًا لي، بل أخاطب إنسانًا يبدو لي فعلاً إنه من كوكب آخر! هل تعرف شاعرًا اسمه المتنبي؟ بالتأكيد لا تعرفه ولم تسمع به، سأكتب لك ما يقوله:

وآنف من أخ لأبي وأمي　　　　إذا أنا لم أجده من الكرام

قل لي.. أجبني، ما الذي ذكرك بنا؟ الحرب أليس كذلك؟ لقد كتبت لي في رسالتك أنك كنت ترى القصف الجوي والصواريخ تنهمر علينا ليل نهار كما المطر، وكنت تظن أننا دفنا تحت ركام هائل من الأتربة والأحجار والدخان، أنت يا عزيزي، لا تعرف معنى الحرب ولم تكتو بنارها، أرجو مخلصًا ألا ترى شيئًا من هذا أو تسمع به، فالحرب بشعة، بشعة إلى الحد الذي تبدو فيه إنها تتحدى بشاعة

الفناء ذاته، إنها الفناء بعينه، هل أحدثك عن الحرب؟ كيف وبأية لغة؟ يبدو لي إنني بحاجة إلى لغة جديدة بمفرداتها، حتى أستطيع أن أنقل لك شيئًا أو صورًا من أهوالها ودمارها، ويكفي أن الصور المتلفزة التي شاهدتها هي التي حركت مشاعرك لتبعث برسالتك إلينا، بعد كل هذه السنوات العشرين! ليس أمامي إلا أن أكتب لك وأقول إنني - أو إننا - نحترم قلقك، ولا أقول خوفك، فشتان ما بين المعنيين القلق ينتهي بانتهاء السبب، أما الخوف فجزء منه يتبرعم في الأعماق لينمو مثل شجرة كبيرة سامقة، إن في الحياة لحظات يبدو فيها الموت أمنية بعيدة المنال.

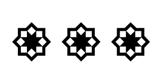
ها أنا ثانية أكتم ضحكة أخرى برغم الأسى الذي يستبد بي، تسألني (هل تزوجت؟)، هل سمعت شيئًا عن مومياء الفراعنة؟ اعلم أنك ستلعنني! ولكن يا عزيزي عليك أن تعلم أن الوالدين صارا شبحين، ولن أكتب لك عما أقاسيه لكي أخفف عنهما.

فهمت من رسالتك إنك مزمع على السفر قريبًا، أو ربما سافرت فعلاً في جولة سياحية إلى دول شرق آسيا، أعتقد أنك ضجرت من أوروبا وتريد أن تكتشف أماكن جديدة تزرع فيها شيئًا من عبثك الصبياني الذي لا ينتهي، أرجو أن تثق أنني لا أحقد عليك ولا أوبخك، فقد اخترت طريقك وذلك قدرك، أما أنا فقد فرضت علي ظروف حياتي نمط العيش الذي أمارسه، أسعدتني صورك وما أنت عليه من صحة، ولكنك لم تنج من تلك الآثار اللعينة التي زرعها

الزمن على مساحات وجهك وشعرك، وكان بودي أن أرى صورًا لولدك الذي قلت عنه إنه يشبهني.

أما عن زوجتك فأعترف لك أنك أحسنت الاختيار وأود أن تعذرني، فلست أملك صورًا تستحق أن أبعثها إليك، لو أنك رأيتني الآن في مكان ما فأنا على ثقة من أنك لن تتعرف علي بسهولة! إنني يا عزيزي أرقص بهدوء على بقايا إنسان كنت في يوم ما أعرفه!

آذار ١٩٩٣



الفهــرس



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net